الجواب الوافي

بيتر كوتيريل

All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر أو إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو الكترونية بهدف بيعها أو المتاجرة بها أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن من الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل. يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي، كما يمكنك أن تنسخها لأجل توزيعها مجاناً لتعم الفائدة.

أسئلة أساسيَّة

ما إن وصلت حنة ذات يوم من المدرسة إلى البيت حتى اندفعت تقول:

أين العدل والإنصاف؟

أجل، فالأمر لا يخلو من الظلم، إذ كان الغش مستشرياً كل حين. فما أكثر ما يتناقل التلاميذ وريقات كُتبت عليها الإجابات الصحيحة. وغالباً ما يتهامسون في أثناء الامتحانات وينسخون واجباتهم المدرسية بعضهم عن بعض. والبنات اللواتي اعتدن فعل ذلك كن ينجحن نجاحاً باهراً.

ولكن لم تنزل الصواعق من السماء، ولم يُبْدِ المعلمون والمعلمات أي اعتراض. وقد بدا أن التلاميذ الغشاشين يفعلون فعلتهم دائماً ويفرون من العقاب.

كان جيداً أن يُقال لحنة إن عدم الأمانة لابد يوماً أن يطبق فخه على أولئك الغشاشين. غير أن الحال ليست دائماً على هذا المنوال. فمن الناس من يتمكنون من شق طريقهم في الحياة بالكذب والغش والخداع، والفخ لا يطبق عليهم البتة. بل إننا نجدهم، على عكس ما نتوقع، ينجحون ويزدهرون. فالأمر ليس حسناً ولا عادلاً.

وماذا نقول في ما يعانيه بعض الناس من آلام تقطع نياط القلب؟ فمنذ عهدٍ قريب علمت بولادة طفلٍ كنت أعرف والديه منذ ولادتهما، بل إنني سهرت ليلةً على راحة أحدهما إذ كان أبواه خارج المنزل. كان الزوجان ينتظران وليدهما بفارغ الصبر، ولكن الطفل ولد مسخاً مشوهاً،وما لبث أن مات بعد أشهر. ولكن لماذا؟ لماذا حدث هذا؟

ثم إن هنالك ذلك الظلم الفادح الظاهر في الغنى الفاحش إلى جنب الفقر المدقع.

فبينما كنت أقوم بكتابة هذا الكتاب، علمت أن خزانةً (دولاباً) بيعت في لندن، وقد استنتجت أنها كانت تحفةً نادرة إذ بيعت بأكثر من تسع مئة ألف جنيه إسترليني، أي بما يقارب المليون. وقد كتبت الصحف أن الشاري غنم غنيمة. ولكن... مليون جنيه تقريباً ثمناً لصندوقٍ خشبيٍّ ضخم مزخرف! أما كان يمكن أن نشتري بهذا المبلغ ثلاثة ملايين وجبة طعام لأُناسٍ عضهم الجوع؟ حقاً إن شراء خزانة بمبلغ خياليّ في عالمٍ يخور فيه كثيرون جوعاً لأمرٌ عديم المعنى.

عند حدٍّ ما في حياتنا، يجد معظمنا الحياة مربكةً فعلاً، إذ يبدو أنها عديمة المعنى. حقاً، إنه لأمرٌ غير حسن. هذه العبارة الأخيرة نقولها عندما نواجه اختبارات كثيرة محيرة، من أمراضٍ وحوادث وميتات ومجاعات وحروب وزلازل...

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

كثيرون منا يتجاوبون إزاء كوارث كهذه بسخطٍ يائس، وتصدر من أعماقهم عبارات تدل على استيائهم من انعدام معنى الحياة كما يبدو.

من هنا يمكن النظر إلى الدين باعتباره محاولةً لإضفاء معنًى على الحياة. وفي الواقع أن البوذية تعبّر بكلمة تقنية عن انعدام معنى الحياة في ذاتها، والكلمة هي "دُكْها"، وهي واحدة من ثلاث خصائص تتميز بها الحياة:

-أنيكّا، أي غير دائمة

-دُكْها، عديمة المعنى

-أناتّا، غير شخصية

من ثم تمضي البوذية فتقدم تفسيراً يبين الأسباب التي تجعل الحياة بهذه الخصائص والكيفية التي نستطيع بها أن نضفي على الحياة معناها.

وبينما تختلف أديان العالم حول طبيعة الحياة والطريقة التي بها قد نرجو إضفاء معنى عليها، فإنَّها تتفق جميعاً على أمرٍ واحد، وهو أن الحياة ينبغي أن يكون لها معنى. وبالحقيقة أن مهمة أيّ دين يُمكن أن تُعتبر أنَّها إيجاد المعنى لما هو عديم المعنى، أعني أنها مهمة تفسير "الدُكها"، أي انعدام معنى الحياة عموماً.

ولما كنت سأتحدث كثيراً عن الدين، فعليَّ أن أقدّم تعريفاً ما. وفيما تعريفات الدين المقترحة تعدّ بالعشرات، اخترتُ استعمال التعريف المشار إليه أعلاه.

إنّ ما ترجوه أديان العالم هو التمكُّن من تفسير "الدُكها" (انعدام المعنى عموماً في الحياة)، وذلك بالتوصُّل إلى أجوبة شافية عن الأسئلة الأساسية المتعلقة بالحياة.

هنالك بالطبع طرائق شتّى لتعريف "الدِّين". وليس التعريف الذي اعتمدته بالتعريف الوحيد، كما أنَّه لا ينطوي في خليفتّه على أية سلطة باتّة. لكن باستعمالنا لهذا التعريف نستطيع أن نضع تحت عنوان "الدين" جميع الأنظمة الدينية، أي المسيحية والإسلام واليهودية (الديانات التوحيدية الثلاث) والهندوسية والبوذية والتاوية والكونفوشيوسية والديانة الأفريقية التقليدية والسيخية، وغيرها من الأديان القائلة بآلهةٍ متعددة، أو المذاهب اللا أدرية.

هذا، وتختلف الماركسية قليلاً عن سواها من الأنظمة لكونها في الأساس إلحاديَّة. غير أنها، بمقتضى تعريفي، ما تزال ديناً، لأنها تقدِّم بالفعل أجوبةً عن الأسئلة الأساسية، ولأنَّها تتوقَّع من معتنقيها أن يؤمنوا بتلك الأجوبة. إنها تصوِّر انهيار نظام الطبقات في العالم كلّيّاً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وانتصار البروليتاريا (طبقة العمال والكادحين). والماركسية مقترنة بنظرية التطوّر، مما يحدِّد جوابها عن السؤال"من أنا؟". وهي لا تعتقد أنَّ الحياة عديمة المعنى، بل ترى أنَّ للحياة ناموساً قائماً في عملية التفاعل بين النظام الحالي ونقيضه لأجل إنتاج مجتمع جديد. فهنالك الفرضية المطروحة (الطريحة) وما يعاكسها (النقيضة) وما ينتج من تفاعلهما (الجميعة) وهذه كلُّها تؤدّي إلى مجتمع صالحٍ وعادل.. ذلك هو الجواب عن السؤال "إلى أين نحن ذاهبون؟" بحسبما تذهب إليه الماركسيَّة.

وفي هذا ما يعيننا على إيضاح السبب الذي يجعل الماركسية عموماً في نزاعٍ مع الديانات، ولا سيمّا المسيحية. فالماركسية بحدّ ذاتها دين يطمح لأن يحلّ محل دينٍ آخر. وكما يصحُّ في اللغات استبدالُ فعلٍ بفعل لأنهما ينتميان إلى صنفٍ واحدٍ من الكلام، ففي الإمكان (وعند الماركسيين: من الواجب) أن تحلّ الماركسية محلّ المسيحية وسواها من الأديان، لكونها هي أيضاً ديناً من الأديان، والمفترض عند معتنقيها أنها أفضل الأديان.

أما وقد حددنا "الدين" وسردنا الأسئلة الأساسية، نستطيع الآن أن نسوق هذه الملاحظة: إنَّ أمانة البحث ودقّته لا تسمحان لنل بالقول إنَّ جميع الأديان سواسيةٌ فعلاً وإنّها تقول في جوهرها قولاً واحداً؟ وقد كتب جان كاين (John Kane) أن "البحث التفضيلي الدقيق في تاريخ الديانات قد أثبت أن التوكيدات السطحيَّة لوحدة الأديان هي بلا أساس صحيح."

وإنها لحقيقةٌ ثابتة أنَّ أديان العالم لا تختلف فقط حول القضايا الثانوية، بل أيضاً حول القضايا الجوهريّة ذلك أنّها تختلف في أجوبتها عن الأسئلة الأساسية.

لا يتّسع كتابٌ بهذا الحجم لمعالجة كلِّ من الأسئلة الأساسية بالتفصيل. ولكن حتى إلقاءُ نظرة سطحيَّة على الأسئلة وعلى الأجوبة التي تقدِّمها أديان العالم من شأنها أن تبيّن لنا أن ما أشار إليه جان كاين هو أمرٌ غنيٌّ عن البيان.

من أنا؟

من أين جئت؟ إلى أين أنا ذاهب؟لماذا؟

من الطبيعي جداً أن تصدر أوّل مجموعة من الأسئلة عن وعينا لحدَّي الحياة الطبيعيين، أي الولادة والموت. أين كُنتُ قبل أن أُولد _ هذا إذا كُنت في مكانٍ ما؟ أين سأكون بعد أن أموت _هذا إذا كُنت سأكون في مكانٍ ما؟

إنَّ الديانات الشرقية، كالبوذية والهندوسية، تقدَّم عن هذين السؤالين جواباً منفتح الطرفين: فأنت كنتَ موجوداً قبلما صرت مولوداً، وستكون موجوداً بعد موتك. إنّك عالقٌ في فخ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

"السامسارا"، أي دوّامة الوجود اللانهائية. وما لم يحدث ما يقطع الدوامة، تظلُّ إلى ما لا نهاية تُولد وتموت، وتُولد مرّةً أُخرى لتعود فتموت. أما هدف الحياة فينبغي أن يكون الانفلات من الدوامة، أي أن أضع في الواقع نهايةً لذاتي الماكرة والباطلة. وتعرض البوذيّة ما تدعوه "نرفانا" حيث تنسحق جميع المشاعر المكوِّنة للذات، فيما تعرض الهندوسية الذوبان في المطلق. وكلتا الطريقين تُفضي إلى إنهاء ذاتي. وقد علّق الفيلسوف لِوْيس (C. S Lewis)

على قياس التمثيل المستعمل عادةً للتعبير عن هذه الفكرة، وهو نزول نقطة الماء إلى قلب المحيط، فقال إنه إذا كان ممكناً اعتبار نقطة الماء ما تزال موجودة بعد اندماجها في المحيط، فمعنى ذلك انتهاء وجود النقطة بحد ذاتها. فإذا كنت سأذوب في المطلق، فمعنى هذا انتهاء وجودي بوصفي ذاتاً.

غير أن المسيحية تقدِّم أجوبةً مختلفة عن هذه المجموعة من الأسئلة.

أنا فردٌ فريد خلقني الله. كانت لي بداية، ولكن لن تكون لي نهاية. لماذا خُلِقتُ؟ كي أتمتع بالله من طريق المعرفة الشخصية له.

إن الجواب عن السؤال "إلى أين أنا ذاهب؟" يعمّقه التفسير المسيحي لانعدام المعنى من الحياة عموماً (الدُكها). ذلك أن المسيحيين يوافقون على كون الحياة غير مُرضية. وهي كذلك لأننا فقدنا تلك العلاقة المميزة بالله، العلاقة التي لأجلها قد خُلقنا. فقد أصبحنا أذكى من اللازم وأكثر ثقةً بالذات وعناداً. وبحماقةٍ وصلنا إلى حيث اعتقدنا أننا قادرون على تدبير شؤون العالم بمعزل عن أي رجوع إلى الله. ونحن نُسيء استخدام قوتّنا ومعرفتنا. إننا نستغلُّ العالم - العالم الذي كونه الله - ونخربّه. ففي أفريقيا تمتدُّ صحراء الساحل أكثر فأكثر؛ وفي أوروبا تتلوَّث البحار بعدما غدت مكبَّ نفايات نطرح فيه النفايات الذرية. وفصائل بكاملها من الحيوانات يتهدّدها الخطر حتى تكاد تنقرض.

إن التفسير المسيحي "للدُّكها" بسيط: لقد أبقَيْنا الله خارج المعادلة. فلنُعِده إليها وإذا كلُّ شيء يتغير.

لنعد الله إلى المعادلة، يَعُدِ الجواب عن السؤال "إلى أين أنا ذاهب" إلى المكان حيث صنع الله الإنسان أوّلاً: "إلى الله، إلى السماء إلى الفردوس."

ولكنْ ماذا يحدث إذا لم نفعل؟ إذا كنتُ لا أسمح لله أن يقوِّم حياتي غافراً لي خطايا الماضي ومحرِّرا إياي من خطايا الحاضر فماذا يكون إذاً؟ عندئذٍ أظلُّ جزءاً من "الدُّكها". سأكون أنا نفسي غير راضٍ، وسأجعل الآخرين أيضاً غير راضين.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إنّما لنلاحظ أمراً جوهرياً متعلقاً بالجواب المسيحي: إنْه لا يُمكن البتةَّ أن أكون أنا شخصياً من يقوّم ذاته بأيْ مجهودٍ مهما عظُم. فلا بدَّ أن يفعل الله هذا. أمّا أنا فلا أستطيع.

وهكذا نطرح السؤال "لماذا؟". لماذا كلَّف الله نفسه فخلقني؟ وأكثر من ذلك: لماذا جاء يفتِّش عنِّي بعدما خلقني ورآني أبتعد عنه بعيداً وأمضي في سبيلي الذاتي؟ أما كان في وسعه، بدلاً من هذا، أن يمحو ذِكري من سجلّه؟ إذا كان ذُكها العالم ما هو غير الحصيلة النهائية لفجور جميع الناس أمثالي، فلماذا لا يكتفي الله بأن يُنهي وجودنا أجمعين ويبدأ مشروعاً آخر في مكان ما ؟

الجواب هو محبة الله

فحاشا له أن يكون وحشاً هائلاً نائياً عديم الرحمة. بل أنه أبٌ مُحِبٌّ، كما تقدِّمه المسيحية.

ومع ذلك فهو بارّ (عادل)، وليس أشبه بجدٍّ عاطفي يتغاضى عن حماقات حفدائه. ومن شأن الله العادل أن يسوي الحساب ذات يوم. فالدَّين يفيه هو أو يبقى عليك لتفيه أنت، لكنه لا بُدَّ أن يوفى.

منذ عدّة سنين قرأت خبر فلاّح كندي قرّر أن يتحدّى إله المسيحية، وقد أصر على تعمد العمل يوم الأحد، وهو اليوم المسيحي المخصَّص للعبادة. وبعد حصاد أيلول (سبتمبر) كتب على الصحيفة المحلية يقول: "حرثت ذلك الحقل يوم الأحد، وبذرت البذار فيه يوم الأحد، وحصدت الحصيد يوم الأحد، وأخيراً بعتُ الغلة يوم الأحد، وقد كسبت من ذلك الحقل ربحاً أكثر مما كسبت من أي حقل آخر. " إلا أن محرر الصحيفة علَّق على الخبر بهذا التعليق الموجز: "إن الله لا يسوّي حسابه في أيلول."

مَن أنت؟

مِن أين جئتَ؟ إلى أين أنت ذاهب؟ لماذا؟

في المجموعة الثانية من الأسئلة الأساسية إقرارٌ بأننا نعيش في المجتمع. فإلى جانب أنا هناك أنت. ويقيناً أنّه من الواضح أن فهمي لهويتك من شأنه أن يحدِّد كيفية تعاملي معك. فقد كان في وسع ستالين أن يتخلَّص من معارضيه لأن الماركسية ترى أن أنت غير مهمّ. وقد كتب كولاكوسكي (kolakowski) في "تياراتُ الماركسية الرئيسيَّةُ": "تمّ اعتقال الملايين وإعدام مئات الأُلوف."

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

تحدِّد البوذية الحياة بأنّها غير دائمة وغير مُرضية وغير شخصيَّة. فلا وجود فيها لشيءٍ اسمه "أنت" ذلك أن الفرد ما هو إلَّا مظهر أو وهم يُدعى مايا" .(maya) فأنتَ" مجموعةٌ عارضة من المقوّمات المتغيرة أبداً، وليس ثمة "أنت" تجعل تلك المقومات تتماسك.

إذاً "أنت" هو أمرٌ غير موجود.

غير أنَّ المسيحية تقدِّم جواباً مختلفاً:

أنت أيضاً فردٌ فريد، وليس قصد الله أن تُفقَد تلك الفرديَّة أو تُدمَّر

فأنت ما كُنت "لتذوب" في الأبدية. إنّ ذلك الجسم الذي لكَ يتغيَّر دائماً أبداً: فهو ينمو ويتقوّى ويتقهقر ويضعف، وأخيراً ينحلّ. ولكنّك أنت فردٌ مخلوقٌ فريداً: إنك حصيلة لا تتكرّر لِما ورثتَه من طريق الجينات (المورِّثات) التي جاءتك من أبويك، وما تعلّمته واختبرته في الحياة، وما فعله الله لأجلك وفيك. ولكَ مجموعة فريدة من المواهب والقدرات لا بدَّ من وجودها في تلك الحصيلة المعيّنة، أي فيك دون سواك. إنّك غير قابل للاستبدال. إنك ذو قيمة في نظر الله.

على أن المسيحية، فضلاً عن هذا، تؤكِّد أنّ لدى الله قصداً فريداً لحياتك، قصداً صالحاً كاملاً مرضياً (راجع رومية ١٢:٢). فأنت لم تأتِ إلى الوجود بالصدفة، وكأنك مجرَّد نتيجة آلية لمعاشرة معيَّنة قام بها أبواك؛ إذ إنَّ مثل هذه المعاشرة وقعت فعلاً ملايين المرَّات في التاريخ دون أن ينتج منها أيُّ وعندما ينتج من المعاشرة حمل يعتبر المسيحيُّون ذلك عملاً قام به الله واهباً الحياة بسرور. فهو تعالى من أتى بك عمداً إلى الوجود.

هذه فكرة رائعة لأولئك الذين يبدو أنهم نَكِرات في هذا العالم. فأنا لست شخصاً غير مرغوب فيه. ربمَّا لم يكن أبواي يرغبان فيَّ. أمَّا الله، فيرغب.

وهكذا أيضاً تبرز أمامنا مجوعة من الأجوبة الواضحة عن الأسئلة الأساسية:

ما هذا العالم؟

مِن أين جاء؟ إلى أين هو ذاهب؟ لماذا؟

تُعلِّم المسيحيَّة أن الله خلق العالم، وهكذا تُعلِّم اليهوديَّةُ والإسلام (بخلاف الهندوسية والبوذية). فالعالم له بداية وسيكون له نهاية ذات يوم. فليس العالم أبدياً كما ترى الهندوسية، ولا هو مجرّد صدفة كونيّة كما قد ترى الماركسيّة. فإنَّ الأرض قد خلقها الله على نحوٍ فريد بقصدٍ أن تكون لنا "مسكناً". ولو كانت أبعد قليلاً عن شمسنا لكانت أكثر برودةً من أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

تُحتمَل، أو لو كانت أقرب قليلاً لكانت أكثر حرارةً من أن تُطاق. وعندنا القمر لإضاءة الليالي، ونحن ندور حول المحور بحيث يصير عندنا ليل ونهار ولكي تدفأ كل أجزاء الأرض. وهناك الأُوكسجين لنتنفَّسه، وطبقة من الأوزون لحماية الإنسان من الإشعاعات العالية غير المحتملة.

ولكن، أليس ثَّمة أمرٌ ناقص؟ فالحياة ما تزال غير مُرضية. ومن السهل أن نحتجّ بأن بعض كوارث الحياة هي من صنع الإنسان، ولكن ليس كلُّها من صنعه. فهنالك المرض، وبوار الزرع، والأوبئة، والجراثيم. وبينما الأرانب مثلاً حسنة جداً، ماذا نقول في ذلك المرض الذي أودى بعشرات الألوف منها، وقد عُرف باسم ميكسوماتوسِز) (myxomutosis ؟ من أين جاء هذا المرض؟ إذا كان الله قد صنع العالم، فمن المؤكَّد أنه قام بعمل غير كامل فيما يتعلق بالعالم؟

عمل غير كامل؟

يجيب المسيحي: كلَّا البتَّة، ثَّم يقدِّم ملاحظة مزدوجة تختصُّ بالدُكها، أي عدم نفع الحياة لكونها غير مُرضية:

-هذا العالم ليس على الطريقة التي قُصِد له أن يكون عليها.

ما هذا العالم؟ إنه مسكنٌ فريد للإنسان. من أين جاء؟

الله صنعه.

إلى أين يمضي هذا العالم؟ يبدو فعلاً أن الزمام قد أُفلِت. وقد بذلت صنوفٌ شتّى من المحاولات لوضع العالم من جديد على السكة القويمة. فها هي أنظمة سياسية جديدة، منها المحلِّي كالقومية الأفريقية، ومنها الدُّوّلي كالماركسية، تنشط في عملها محاولةً إضفاء معنًى على الحياة، ساعيةً بكل جهد لعلَّها تضع حدّاً لصفة عدم الإرضاء المنوطة بوجودنا البشري. ويبدو غالباً أن هذه الأنظمة البشرية تنطلق من افتراض يقول بأنّنا جميعاً صالحون في الجوهر وأنَّه يسرنا أن نعمل لأجل خير الآخرين، وهكذا نُصلح حال العالم كلّه. إلا أن حال العالم لا تصطلح، وتذهب المحاولة أدراج الرياح. والظاهر أن سبب ما نقدّمه من أجوبة بشرية غير شافية عن السؤال "إلى أين يمضي هذا العالم؟" إنّما يكمن فينا نحن. فليست المشكلة هي العالم، بقدر ما هي نحن في العالم. وهكذا تعود بنا المجموعةُ الثالثة من الأسئلة الأساسية، لا محالة، إلى المجموعتين الأولى والثانية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إلى أين يذهب العالم؟

إلى الفوضى والخراب؟ أهي غلطة الله؟ حسناً، لنأخذ مثلاً "عدم كفاية" المجاعة. ينقطع المطر فيبور الزرع ثم يجوع الناس. فهل هي غلطة الله؟ حاشا: ففي العالم غذاء يكفي لتلبية حاجات كلّ من هو حيَّ اليوم وكل من سيكون حياً في المستقبل المنظور.

إنما التوزيع هو المشكلة. فإنَّه لَعالمٌ مجنون حيث تكدّس أوروبا زبدتها وأمريكا حنطتها فيما يجوع قوم في أفريقيا وآسيا ويموتون فعلاً كلَّ يوم.

مهلاً. سهلٌ جداً أن نُلقي اللوم على أمريكا وأوروبا وحدهما. فاللوم يلحقنا جميعاً _ سوداً وبيضاً _ لأجل هذه الفوضى.

وأنا، كاتب هذه السطور، قد عشت في أثيوبيا عدّةَ سنين، بما فيها سنوات المجاعة، حين مات مئاتُ الألوف جوعاً. أهي غلطة الله؟ أم غلطة أمريكا؟... وقد حلّقت بي الطائرة فوق المنطقة الواقعة في جنوب أثيوبيا، والمعروفة محليًّا بأنها "سلّة خبز أفريقيا ": أميالٌ وأميال من الأراضي الخصبة المدهشة، لكنَّها متروكة بلا زرع. ذلك أن الأثرياء الأثيوبيين في أديس أبابا علموا بخطط البنك الدولي المعدَّة لتنمية المنطقة، فما كان منهم إلاَّ أن ابتاعوا الأراضي من السكان المحليين ثم جلسوا مكتوفي الأيدي وراحوا ينتظرون صفقة العمر حين يبيعون تلك الأراضي إلى البنك الدولي. وطبعاً، لم يكونوا راغبين في زراعتها فيما كان الآلاف يموتون جوعاً.

إلّا أن القصّة لم تنتهِ عند هذا الحدّ. فقد بادر الغرب إلى إغاثة الجياع، فأرسل هباتٍ من مسحوق الحليب المجفّف للأطفال وكميّات من الحنطة للجائعين. غير أنّ المبتزّين الأثيوبيين وضعوا أيديهم على مسحوق الحليب وباعوه في السوق السوداء. وكأنَّ هذا لم يدرّ عليهم الربح الكافي حتى خلط بعضهم مسحوق الحليب بغبار الكلس. وبالطبع مات كثيرون من الأطفال نتيجةً لذلك.

فعلى من يقع اللوم؟ علينا أجمعين، ما دامت طبيعةُ انتهاز الفرص موجودة في قلب كل واحد منّا.

إلى أين يذهب هذا العالم؟ إن مصيرنا الفوضى والخراب. وغالباً ما لا نقدر أن نجد ولو سبيلاً للمساعدة. فلنعد إلى أثيوبيا. مرَّت سنوات ورحى الحرب تدور على جبهتين: مع أهل الصومال إلى الشرق، ومع أهل أريتيريا إلى الشمال. ولدعم المطالبة بالاستيلاء على الإمبراطورية، أنشأت أثيوبيا أكبر جيش في أفريقيا، بحيث تحوّل معظم الدخل القومي إلى اقتناء القنابل والرصاص. ولما ظهرت المجاعة من جديد في الثمانينيّات، صدرت صرخات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الاستغاثة من آلاف الجياع. ولكن ما العلم؟ عندما تُرسل الحنطة تتشجّع الحكومة الأثيوبية وتنفق ميزانيتها على الحرب. وعندما لا تُرسل الحنطة يموت الناس جوعاً.

أضف إلى هذا بالطبع أهوال المرض والزلازل والأعاصير، وكلُّها جزء من الفوضى المستفحلة في هذا العالم. غير أن العالم لم يخلق على هذه الصورة.

"ورأى الله كل ما عمله، فإذا هو حسن جداً" (تكوين١:٣١).

مرّةً أُخرى نشير إلى أن اللوم، بحسب التعليم المسيحي، يقع على الإنسان. فالفصل الثالث من سفر التكوين يصوّر، على نحوٍ بسيط ودرامي، تصميم الإنسان الانتحاريَّ على المضيّ في سبيله الخاصّ لإرضاء ذاته مُبقياً الله خارج حسابه. ونقولها بكلماتٍ كُنا نتمنَّى ألَّا تُقال، إننا هناك نطقنا على أنفسنا بحكم العواقب الرهيبة الظاهرة الآن في ابتعاد الإنسان عن الله وإقامته في عالمٍ مُعادً. وبكلمة واحدة: إنّها الفوضى الشاملة.

هذه الفوضى الكليّة ليست من صنع الله، بل من صنعنا نحن. وهنا يظهر الجواب عن "لماذا سقط العالم في هذه الفوضى"؟ لقد كان ذلك بسببنا نحن وبسبب ابتعادنا عن الله. فلو كُنَّا قد عرفناه حقّ المعرفة، لما كنّا نتصرّف كما نحن فاعلون الآن.

العلاج

كما أن للمسيحية تفسيرها للفوضى الكونيَّة، فإنَّ عندها علاجاً لها. أما، وقد رأينا التفسير، ننظرُ الآن في العلاج؟

إن العلاج يتمُّ على صعيدين:

_مباشر

_ومستقبليّ

فعلى المدى القريب، يستطيع الله أن يغرس فينا حياةً ذات نوعيَّة جديدة ومطامح جديدة وأولويات جديدة، بحيث نصير على استعداد لأن نضع الله أوّلاً والآخرين ثانياً وأنفُسنا أخيراً. وهكذا نستطيع، على المدى القريب، أن نحصل على عالمٍ أفضل. وكي نكون واقعيين، نقولُ إنَّه لن يكون العالم الأفضل، لسببٍ بسيطٍ هو أنَّ المسيحية لا تشجّعنا على الاعتقاد أنّ أعداداً كبيرةً من الناس ستنضوي تحت لوائها. فليست المسيحية مجرّد وعدٍ بمجتمع فاضل، بل هي تقِّدم طريقاً، طريقاً صعباً، ينطلق منا أوّلاً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وعلى المدى البعيد، فللمسيحية أيضاً ما تقوله، إذ هنالك الرجاء بأن العالم سيكون ذات يوم معرضاً لكل النظام والجمال والقصد العجيب الذي قُصِدَ له في الأصل أن يكون عليه. وقد كان كثيرون من المسيحيين الأوَّلين قوماً عديمي العلم. أما بولس فكان استثناءً، فهو يهوديٌّ درس على معلِّم شهير اسمه غمالائيل.

وقد كتب بولس رسالة إلى الكنيسة في روما، وفيها رسم الصورة كلّها بمنتهى الوضوح:

لأنّ انتظار الخليقة يتوقّع إستعلان أبناء الله. إذ أُخضعت الخليقة للبُطل، ليس طوعاً بل من أجل الذي أخضعها، على الرجاء _ لأن الخليقة نفسها أيضاً ستُعتق من عبوديَّة الفساد إلى حرية مجد أولاد الله. فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخَّض معاً إلى الآن. وليس هكذا فقط، بل نحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا أيضاً نئنّ في أنفسنا، متوقعين التبنّي، فداء أجسادنا (رومية ٨: ١٩_٢٣).

ذلك هو جواب المسيحي، على المدى البعيد، عن طبيعة الحياة المتسمة بالنقص وعدم الإرضاء. إن الله قد أصلح حالي، ويستطيع أن يُصلح حالك. ونحن نستطيع معاً أن نبدأ بإصلاح حال هذا العالم. غير أن الله سيتدخّل يوماً ما، بخطوةٍ حاسمة، ليُحرّر الخليقة كلَّها. وعندئذٍ نرى عالم الله كما قصد له دائماً أن يكون.

لعلك لاحظت، ونحن ننظر في الأسئلة الأساسية، أنَّنا مراراً وتكراراً عُدنا إلى أنفسنا، أي إلى الإنسان. لذا يلزمنا فعلاً أن نسأل أنفسنا هل نحن على صواب في وضعنا الإنسان في لُبّ تفكيرنا بالذات. فهل الإنسان بهذه الأهميَّة حقّاً ؟

ليس الإنسان ذا أهميَّة لأنه يعتقد أنَّه مهم، بل لأنَّ الله صنعه هكذا. حتّى إنَّ جزءاً من مشكلة النقص العام في الحياة يأتي عندما يجعل الإنسان نفسه مهمّاً بمعزلٍ عن الله. وتظهر وجهة النظر المسيحية بخصوص الإنسان في سؤالٍ بسيط وجوابه بحسب خلاصة أصول الدين المعروفة بخلاصة وستمن ستر الصُغرى (وهي معتمدة في الكنائس المشيخية في انكلترا واسكتلندا وايرلندا منذ ١٦٤٨):

ما هي غاية الإنسان الرئيسيّة؟

_غاية الإنسان الرئيسية هي أن يمجِّد الله ويتمتع به إلى الأبد.

ينبغي ألّا تدور الحياة على محور النجاح والشهرة والمرَح والمال، بل يجب أن تكون كلُّها مُتَمحورة حول الله الذي ينبغي أن يكون مركز حياتي. فما أُفكِّر فيه وأقوله وأفعله يجب أن تهيمن عليه هذه الفكرة: أنّ الله قد خلقني كي أُمجده وأتمتّع به إلى الأبد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

تؤكّد المسيحية أن الحياة تكون ذات معنى فقط حين ترتبط بالله. هذه قولة حقٍّ يُقرّها المنطق السليم. إذا كُنَّا نلخّص الحياة ونثمّنها بحصرها بين طرفي ولادتي وموتي، فهي لن تعني شيئاً البتة. وأصدق كلمة في وصفها عندئذٍ هي "دُكْها" (عدم الكفاية والإرضاء). ولكن ما إن أدع الله يدخل في الحساب حتى يبزغ رجاء جديد، إذ يصير ممكناً أن تكون حياتي ذات معنى. بل إن الحياة بكاملها والخليقة كلها يصير لهما معنى. تُقرّ الفلسفة الإنسانية بانعدام العدل في الحياة، وتكتفي بمجرّد القول: "ليست الحياة حسنة. هذا أمرٌ مؤسف، ولكنّه الواقع، وما علينا إلّا قبوله."

وتقول البوذية: "الحياة ليست حسنة، ولكن سبب ذلك هو أنك لا تفهمها على حقيقتها. فهي وهم (مايا). الألم وهم. الأفراد وهم."

أما المسيحية فتقول: ليست الحياة حسنة. ولكن افتح عينيك وحياتك لله. إنك لست مجرّد صُدفة كونية، بل أنت فردٌ فريد. قد صنعك الله لتمجّده وتتمتّع به إلى الأبد. تصالحَْ معه، تتبدَّلْ حالك. ومتى حدث هذا، فإنّ العالم أيضاً يتبدّل. حينئذٍ، لتكن لك نظرة جديدة في الحياة."

ولكن قبل النظر في فكرة المصالحة مع الله، لابدَّ لنا من النظر في المسيح ما دام هو الشخص الذي يجعل هذه المصالحة ممكنة .

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يسوع المسيح هو الحلُّ الوحيد

يمكن اعتبار أديان العالم مجموعة من المحاولات الهادفة إلى توفير أجوبة عن الأسئلة الأساسية: "مَن أنا؟"، "مِن أين جئت؟"، "إلى أين أنا ذاهب ؟"،"لماذا؟"، وهكذا دواليك. فلمّا فكر غوتاما البوذا مثلاً في الوجود البشري صعقه على الأخصّ شمولُ الألم وارتأى أنّ في وسعنا الإفلات من الألم بسلوك سبيلٍ وسط: ألاَّ نكون مُفرطين في الانضباط، ومع ذلك لا نكون عديمي الانضباط، ألاّ نضحك كثيراً، ومع ذلك لا نغرق دائماً في سيولٍ من الدموع. أو لنأخذ الأجوبة التي قدّمها كارل ماركس، حيث تنشأ مشكلات الحياة من نظام الطبقات. فإنْ تخلَّصنا من طبقيّة المجتمع، يبدأ الظُّلم عندئذٍ يزول بالتدريج.

أما في المسيحية فالأجوبة عن الأسئلة الأساسية تأتينا من طريق إعلان الله لذاته عموماً في الكتاب المقدّس وخصوصاً في يسوع المسيح.

والاسم "يسوع" بحدّ ذاته مهمٌّ بسبب معناه: "الربّ يخلّص" (راجع متى ١:٢١). وهذا الاسم يفترض مسبّقاً وضعاً يحتاج الناس لأن يُخلَّصوا منه، ويدلّ على أنّ لدى الله سبيلاً للخلاص.

كذلك لُقِّب يسوع أيضاً "المسيح" وهي الترجمة العربية للّفظة العبرية "مسيّا" ومعناها "الممسوح". وبحسب الفكر العبري، كان الشخص يُمسَح بالزيت (الدهن) علامةً على أنَّه مدعوٌّ إلى مهمّة خاصّة. كان الملوك يمسحون، شأنهم شأن الكهنة والأنبياء أيضاً. ويبدو مرجّحاً بالنسبة إلى يسوع أن عمله قد جعله يحمل الصفات الثلاث: نبي وكاهن وملك.

لماّ قدّم يسوع للذين يسمعون له أجوبته عن الأسئلة الأساسية، قدّمها بطريقة جديدة كليّاً. فإنَّ غوتاما البوذا تفحَّص الحياة وتأمَّل غوامضها ثُّم عرض ما طلع به من حَلّ غير أنه أبقى الله خارج نظامه. ومِن بعد يأتي محمد ويواجه الأسئلة المطروحة دائماً أبداً ويذهب إلى أن الله أوحى إليه بالأجوبة. أمّا بالنسبة إلى يسوع المسيح، فعندنا شيء مختلف كليّاً: فقد صرّح المسيح بأنه جاء من لدن الله وأنَّه هو الله.

سيرة يسوع

تبدأ سيرة يسوع بداية غير عاديّة وتنتهي نهايةً بعيدة عن المألوف، (أمر متوقّع إذا كان هو الله). فقد كان ليسوع أُمٌّ بشرية، ولكن لم يكن له أبٌ بشري. وسيرة يسوع الفريدة على الأرض تبدأ بحادث حبَلٍ فريد، ذلك أن يسوع وُلِد من عذراء.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يروي إنجيل لوقا الخبر بكل بساطة. فقد أُرسل الملاك جبرائيل إلى مريم ليُبشِّرها بأنَّها ستلد ابناً ينبغي أن تسمّيه "يسوع ". ولسوف يُعرَف بأنه ابن الله العليّ. إذ ذاك تتحيّر مريم حيرةً نفهم سببها إذ تقول:" كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً ؟"(لوقا ١:٣٤).

وليس بعجيبٍ أن يتناهى خبر هذه الولادة المعجزة إلى محّمد فيُشير إلى كلام مريم بالقول:"أنّى يكون لي غلام ولم يمسني بشر؟ "(سورة مريم ١٩،٢٠).

إتمام نبوّة

ورد في الكتاب المقدّس أن البشير متّى يفسِّر هذه المعجزة بأنها إتماماً لنبوّةٍ نطق بها أشعياء منذ زمنٍ بعيد (راجع متى ١:٢٢و ٢٣). وقد دوِّنت هذه النبوّة في الفصل السابع من سفر أشعياء:

...يعطيكم السيد نفسُه آيةً. ها العذراء تحبل، وتلد ابناً اسمه " عمانوئيل " زُبْداً وعسلاً يأكل متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير. لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشرّ ويختار الخير، تخلى الأرض التي أنت خاشٍ من ملكيها (أشعياء٧:١٤ ـ ١٦)

إنَّ لهذه النبوّة ـ شأنها شأن الكثير غيرها من النبوّات الموجودة في الكتاب المقدس ـ مَرمَيَيْن، أحدهما قريب والآخر بعيد. أما الإتمام القريب فقد تمَّ بُعَيْدَ النطق بالنبوّة. وأمّا البعيد، فبعد مئات السنين. وقد حصل الإتمام الأوّل في أيام أشعياء نحو السنة ٧٣٠ ق م.

أُمٌّ وابنٌ

على أن أشعياء استخدم في نبوّته هذه كلمتين مميَّزتين، إحداهما تدلُّ على الأم والأخرى على الابن. والكلمة المستخدمة للدلالة على الأمّ تعني امرأة شابَّة عذراء. إذ لما كتب متّى إنجيله باليونانية استعمل في ترجمة هذه الكلمة اللفظة "بارثينوس" وتعني "عذراء" بلا لبس ولا غموض.

والآن، إلى الكلمة الثانية. فقد قال أشعياء إنّ ذلك الولد سيُدعى "عمانوئيل"، ومعنى هذا الاسم " الله معنا". وكانت الشعوب الساميَّة قد درجت على تسمية المواليد غالباً بأسماء تتضمّن تعليقاً على حادثةٍ ما مرتبطة بولادة أولئك المواليد. وأذكر أن طفلاً سُمّي "رَجعان" لأنه وُلِد لأبوين كبيرين في السنّ، وكأن هذا الطفل جنى متأخِّر (رجعي). فنسبةً إلى نبوّة أشعياء، سُمّي الطفل "عمّانوئيل" لأن المعنى الأوفى لهذه النبوّة لا يظهر إلَّا في الإتمام

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

المتعلِّق بيسوع المسيح. فالمسيح كان فعلاً " الله... معنا ". إنه لم يكن مجرّد آية (علامة) على أن الله في جانبنا، بل كان في نفسه الله... معنا.

لذا كانت البداية الفريدة لسيرة المسيح على هذه الأرض حدثاً هامّاً. وقد جرى التمهيد لها بنبوّة عنها جاءت قبلها بسبع مئة سنة. وهذا يُبّين دخول الله إلى العالم الذي خلقه، لا كإنسان متفوّق من صنفٍ ما، ولا كملك، بل طفلاً حُبِل به بأُعجوبة وما هو إلّا "الله... معنا."

من الواضح أنَّ هذه النظرة إلى ولادة المسيح تختلف كلياً عن نظرة أولئك الذين يعتبرونه مجرَّد إنسان فربّما اعتبروه إنساناً صالحاً على نحوٍ مميَّز أو معلِّماً شهيراً، ولكنهم مع ذلك يعتبرونه مجرّد إنسان يفسِّر العالم ويشرحه كما يراه. إلا أن الكتاب المقدّس، على نقيض هذا، يقدم لنا إنساناً فريداً، إنساناً لا يبدأ وجوده عند ولادته بل يدخل عالمنا هذا من العالم الآخر، أعني من الأبديَّة. وبالحقيقة، هذا هو ما يعنيه المسيحيون بالتجسُّد ذلك أنَّ الله صار إنساناً وجاء إلى العالم الذي يراه، بطريقة تشبه الطريقة البشرية المعهودة لكنَّها تختلف عنها بفرادةٍ عجيبة: حادثة فريدة كانت لها بداءة فريدة.

حداثته

وُلِد يسوع في عائلة فقيرة، ولا نعرف عن حداثته إلّا القليل. والأرجح أنَّه كان يذهب مع العائلة إلى أورشليم كلَّ سنة. فنحن نعلم أنه ذهب إلى هناك لما كان ابن اثنتي عشرة سنة، حيث أذهل معلّمي الشريعة بالأسئلة التي سألهم والأجوبة التي أجابهم (راجع لوقا ٢: ٤٦و٤٧).

ومن المشوّق أن نلاحظ الطريقة التي بها صحَّح المسيح بلطفٍ زلَّة لسانٍ من مريم خلال تلك الزيارة إلى العاصمة. فلمَّا بدأ المسافرون من الناصرة طريق العودة إلى بلدهم، كانوا قد تركوا يسوع في أورشليم. لذا كان على مريم ويوسف أن يعودا إلى المدينة ليجداه. ولما وجداه بعد عناء، أبدت مريم انزعاجها إذ قالت:

"يا بُنيّ، لماذا فعلت بنا هكذا؟ هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذَّبين

"فقال لهما: لماذا كنتما تطلباننني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي؟" (لوقا٢: ٤٨و٤٩).

"أبوك وأنا"...

..."في ما لأبي."

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

نشأته

يُرجّح أن يسوع قضى ساعات طويلة وهو يراقب يوسف إذ يعمل صانعاً الكراسي والأَسِرَّة، وقبضات الفؤوس، والأنيارَ التي توضع على أعناق الثيران عند الحراسة. ولعلّ هذه هي الخليفَّة وراء دعوته اللطيفة التي أطلقها بعد عدة سنين:

تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أُريحكم. احملوا نيري عليكم، وتعلَّموا منّي لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم: لأن نيري هيّن وحملي خفيف (متى ١١: ٢٨ ـ ٣٠).

خدمته

لما بلغ يسوع الثلاثين تقريباً، اختار له جماعة صغيرة من اثني عشر تابعاً، وانطلق في خدمة دامت نحو ثلاث سنين تميّزت بالتجوال شبه الدائم في أنحاء مملكة هيرودس البالغة نحو ثمانية آلاف كلم٢، حيث كان يُعلِّم ويشفي في أثناء تجواله.

المسيح كارزاً

لم يكن معلِّم الدين اليهودي، أي "الرابّي " مجرَّد خطيب. بل كان يتوقع من تلاميذه أن يتشرّبوا نمط حياته بالكامل وأن يحفظوا تعاليمه غيباً. ويبدو أن المسيح حذا حذو معلِّمي الدين اليهود. فكان لزاماً على أتباعه ألاثني عشر أن يتركوا أعمالهم، من صَيدٍ وجباية ونحوهما، كي يتفرّغوا لإتباع معلِّمهم.

إلّا أن المسيح كان مختلفاً عن غيره من الرابيين. ذلك أنه كان ـ وقد علم تلاميذه أنه كان ـ معلِّماً وسيّداً، في آن: " أنتم تدعونني معلماً وسيّداً، وحسناً تقولون، لأني أنا كذلك" (يوحنا ١٣:١٣). وليس أتباعه وحدهم مَن علموا أنه كان مختلفاً عن غيره من الرابيين، بل إنَّ عامَّة الشعب أدركوا ذلك أيضاً. فالرابيون ما ادَّعوا لأنفسهم أيَّ سلطان، بل كانوا دائماً يستشهدون بأقوال الرابيين السالفين كمرجعٍ ذي سلطانٍ يعتمدونه في آرائهم وأحكامهم. أمّا يسوع، فلم يكن من هذا النوع:

فلما أكمل يسوع هذه الأقوال، بهت الجموع من تعليمه، لأنه كان يعلّمهم كمن له سلطان، وليس كالكتبة (متى ٧: ٢٨و ٢٩).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وقد كان "ملكوت الله" واحداً من الموضوعات العظيمة التي دار عليها تعليم المسيح. ففي مستهلِّ إنجيل مرقس، نقرأ أنه "... جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مرقس ١:١٤ و١٥).

هذا الموضوع الرائع يذكرنا أن زمام العالم ليس مُفلتاً، إذ إنَّ الله يسيطر عليه. غير أن مُلك الله هذا لا يعني أننا محرومون الحرية. فنحن لسنا أشبه بآلات الساعة يعبّئها الله ويحتم عليها أن تظلّ تدور إلى أن تفرغ. بل إننا بالأحرى أحرار، ومع ذلك ـ شئنا أم أبينا ـ نعيش في عالم يسيطر عليه الله باعتباره الملك.

إنّ وضْعَنا يُشبه بالأحرى حالة من يعيش في بلدٍ تعرف حكومته كل شيء عن مخالفة للقانون. حتى إنَّ أحداً ما لا يستطيع أن يُجاوز حدَّ السرعة المسموح بها دون أن تعلم السلطات بأمره. وحكومة هذا البلد فعّالة بحيث إن كلّ مخالفٍ للقانون لا بُدَّ أن يلقى عليه القبض ويّلقى عقابه. ففي بلدٍ كهذا يكون الناس أحراراً، أحراراً حتى في خرق القانون، ولكنْ لا بدَّ أن يعلموا أنَّهم إن اختاروا سبيل الجريمة فعليهم أن يتحمّلوا العواقب.

طبعاً، إن التشبيه ليس كاملاً كليّاً، غير أنه يصف بالفعل عالماً مختلفاً جدّاً عن عالم الهندوسية مثلاً، لا أكون حرّاً في أفعالي. ففي الهندوسية تكون أحوالي وأفعالي اليوم نتيجةً لما يسمّونه " كرما" أي ما اشتمل عليه ماضيَّ من حاصل تسوية الميزان"؛ إذ إنَّ ما يحدِّد حياتي اليوم حتماً يعود إلى ما كان لي وما كان عليَّ لا في ماضي حياتي الحاليّة فقط بل في جميع حياتي الماضيات أيضاً.

ثمَّ إن صورة العالم التي ترسمها المسيحية تختلف عمّا هي عليه بحسب الإسلام، حيث يُعتبَر حُكم الله مطلقاً. ونحن نعلم أن العبارة "إن شاء الله "تتردَّد كثيراً في جميع البلدان العربيَّة. حتى إنّ "الأشعريَّة"، وهي المذهب اللاهوتي الأشهر والأكبر، تنكر كليّاً الحريَّة البشرية وتقول بالجَبْريَّة الشاملة (أي تسيير القضاء والقدر للبشر في كل شيء).

تصوير ملكوت الله

عندما تحدث المسيح عن ملكوت الله، كان قصده أن يدعو الناس إلى الاعتراف بحكم الله وإلى إخضاع أنفسهم له، لا بسبب الامتيازات التي ستكون لهم، بل إقراراً منهم بأنه هو الله. كان اليهود قد أساءوا فهم رسالة الله إليهم، إذ رأوا فيها إعطاءهم امتيازات خاصَّة، وكأن الله كان معنيّاً بهم وحدهم دون غيرهم، كما لو كان حكم الله لهم وحدهم. حتى إن الكبرياء القوميَّة أدّت بهم في نهاية المطاف إلى كارثة قوميَّة. فلما كان المسيح هناك يتحّدث إليهم عن ملكوت الله، لم يكن اليهود أحراراً، بل كانوا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وكما تكون الحال دائماً في مثل هذه الأوضاع، كانت لديهم آمال بالتحرُّر يمنّون النفس بها. أيلجأون إلى العصيان أم إلى الثورة، غير أن المسيح ذكّرهم بما كانوا قد نسوه من عهدٍ بعيد في غمرة انشغالهم بالسياسة. لقد ذكرَّهم بالله، وبملكوت الله

في الفصل الثالث عشر من إنجيل متى سبعة أمثال تدور على ملكوت الله. والمثل حكاية يمكن فهمها، تمَّ استخدامُها لتفسير حقيقة ليس من السهل فهمها. فتلك الأمثال السبعة توضح ما أراد المسيح قوله عن ملكوت الله.

•تكلم المسيح عن رجلٍ يبذر البذار. وواضحٌ أن النتائج تعلّقت بنوعيَّة التربة التي وقع فيها البذار، فكانت أرضاً ليّنة وغنيَّة ومحضّرة جّيداً، أو أرضاً مليئة بالأعشاب الضارّة والأشواك، أو أرضاً داستها أقدام الدائسين أو أرضاً صخرية. هاهنا أوَّل شيء يودّ المسيح أن يقوله عنّي وعن ملكوت الله. فإنْ كان قلبي قاسيّاً ومُرّاً ومليئاً بالكبرياء والاكتفاء الذاتي، فحتى لو وقع البذار الجيّد عليَّ ـ حتّى لو سمعت عن ملكوت الله ـ فإنّي لا أُريده إذ ذاك.

•وتكلَّم عن الإنسان الذي زرع زرعاً جيّداً ثُّم جاء عدو وزرع زواناً في الحقل عينه. ولما طلع الزرع الجيَّد وبدأ ينمو، لم يكن ثمة طريقة يستطيع الفعَلة بها أن يقتلعوا الزوان دون إتلاف الزرع. هاهنا ردٌّ على الذين يرفضون الدخول إلى الملكوت بسبب خليط الناس الذين يرونهم يدّعون أنهم جزءٌ منه. فلربّما زعم الزوان أنه جزءٌ من المحصول الرئيس فقط لأنَّه شارك الحنطة في الحقل الواحد. وإنَّه لأمرٌ صحيح أننا نجد بين المعترفين بأنهم أولاد الله مَن هم غشّاشون أو كذّابون أو انتهازيّون، مثلهم مثل الزوان المزروع بين الزرع الجيّد. وكم من كنيسة ناشطة أفسدها وجود مُرائين، ومؤمنين شرفاء أخزانهم وجود أُناسٍ فاسدين بينهم. فهوذا المسيح يُنذرنا أنَّ الحال الآن ستكون على هذا المنوال. أما طبيعة الملكوت الحقيقية فلن تُعرَف قبل أوان الحصاد، أي عند يوم الدينونة الذي فيه يُفصّل الزوان من بين الحنطة الجيّدة، يومّ يُفصّل المراءون من بين المؤمنين الأمناء.

•وتكلم عن كنزٍ مخفي في حقل، وعن تاجر يبحث عن لآلئ حسنة. كان التاجر مستعدّاً لأن يدفع أيَّ ثمن ليشتري لؤلؤة جميلة جدّاً، وما كان أيُّ ثمنٍ غالٍ ليحول دون ذلك. صحيحٌ بالطبع أننا لا نستطيع أن نشتري ملكوت الله، غير أنَّ الدخول له ثمنٌ لا بُدَّ أن يُدفع. فالناس لا يفهمونك، وينعتونك بأنك متطرّف أو رجعيٌّ دينياً، ويستغربون استرسالك في الحديث عن الله. بل إنَّ إصرارنا على الاستقامة قد يسبّب الإزعاج لبعض الذين حولنا. ذلك أن وجود الشرف والاستقامة في مجتمعٍ يندران فيه، من شأنه أن يكون مصدر إزعاج دائم للجميع، وهكذا نخسر صديقاً تلو آخر. وفي بعض البلدان قد يكون الأمر أخطر جدّاً، حيث قد يعني دخولُ ملكوت الله فَقْدَ الوظيفة وحرمان الحريّة، والسجن بلِ الموتَ أيضاً. ففي هذين المثلين، أي مثل الكنز المخفي في حقل ومثل التاجر الطالب لآلئ حسنة، يلمّح المسيح

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إلى هذه الحقيقة: ربما كان عليك أن تدفع ثمناً غالياً لقاء دخولك ملكوت الله... ولكنّ الأمر يستحقُّ ما يُبذَل في سبيله من عناء.

*وضرب المسيح مثلاً عن صيادين وما صادوه من سمك. لا شكَّ أنَّ سامعيه غالباً ما كانوا يرون صيّادي الجليل طالعين إلى الشطّ وهم يجرُّون شباكهم الملأ سمكاً من كل صنف، ومن ثَّم يجلسون على الشاطئ ويفضلون رديء السمك عن جيّده. وقال المسيح إنّ الحال عند رجوعه لاستلام مُلكه ستكون على هذه الشاكلة، إذ يكون ذاك أوان الفَصْل، حيث يُضَمُّ الجيّد ويُطرح الرديء. عند ذاك يظهر الحقّ جليّاً. ولا شك أن هذا المثل ينطوي على تحذير: إنَّ هنالك ملكوتاً ينبغي دخولُه، ونعيماً ينبغي اكتسابه، وجحيماً ينبغي اجتنابُه.

*يتبقّى لنا من أمثال متّى السبعة اثنان: مثل حبَّة الخردل، ومثل الخميرة. فإنَّ بزرة الخردل الدقيقة تنمو لتصير شجرة كبيرة تأوي إليها الطيور وتبيت فيها. والخميرة تفعل فعلها في العجين فتخمّره كلّه. هكذا كانت لملكوت الله بداءات صغيرة (ربمّا كان المسيح يفكِّر ساعتئذٍ بمجموعة أتباعه تلك الصغيرة وغير المؤثِّرة). ولكن لننتظر حتى نرى إلى ما سيؤول إليه الأمرُ كلُّه. فعندما يعود الملك، عندئذٍ يُعرَف امتداد ملكوته. إنّ أهل الملكوت قليلون نسبيّاً وعديمو الأهميَّة ظاهريّاً، غير أنَّهم مبعوثون إلى العالم أجمع كشهودٍ للمسيح، وقوّة الله عاملة فيهم وحولهم... والعالم يتغيّر بواسطتهم.

يساعدنا تشديد المسيح على ملكوت الله في تفسير الأجوبة عن الأسئلة الأساسيّة المشار إليها في الفصل الأوّل: من أين جئتّ أنت؟ من أين جاء هذا العالم؟ إنَّ الله هو صانعنا جميعاً. ونحن لله، والعالم له. إلى أين نحن جميعاً ذاهبون؟ إن الأمور ليست خارجة عن السيطرة، ولا هي تتّجه إلى التصادم والتحطُّم بل إنهَّا سائرة إلى الوقت الذي فيه سيُظهِر الملك نفسه ملكاً ويجمع رعاياه إلى ملكوته. وماذا يجري للباقين؟ إنَّهم سيُرفضون ويُطرحون خارجاً، أشبه بزوان الحقل وبالسمك الرديء العالق في شبكة الصيّادين.

معجزات المسيح

تروي الأناجيل كيف شفى المسيح مرضى، وأقام موتى، وحوَّل الماء خمراً في عُرس، ومشى على وجه بحر الجليل، وأمر عاصفة بأن تهدأ، وأطعم آلاف الناس ببضعة أرغفة وقليلٍ من السمك. هذه الأحداث تُروى بكل بساطة ودون فذلكة، حيث تُجرى المعجزات تلبيةً لحاجةٍ ما، ولم تُجرَ أُعجوبة واحدة للبرهنة على أن المسيح يستطيع إجراء المعجزات. فيبدو أن الافتراض المتضمَّن في كل معجزة هو التالي: "هذا هو يسوع المسيح، وهو بالطبع من قام بهذه الأعمال المدهشة. إنَّه مختلف عن غيره. إنَّه حقّاً الله... معنا" .

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولنا أن نحدّد ثلاث خصائص تتّسم بها المعجزات، وهي أنّها:

•مذهلة،

•ذات معنى ومغزى،

•آياتٌ بيّنات على القدرة والسلطان.

•المعجزات مذهلة لأنّها فريدة إذ ليس في الحياة الاعتيادية ما يوازيها. وعليه، فلمّا شفى يسوع رجلاً من الفالج (الشلل)، وذلك بعبارة واحدة قالها: "... قم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك"، جاءت ردّة فعل الجمهور الذي رأى ذلك على نحوٍ متوقّع:

فأخذت الجميع حيرة، ومجدوا الله، وامتلئوا خوفاً قائلين: إنّا ق رأينا اليوم عجائب (لوقا ٥:٢٦).

•وقد كانت المعجزات ذات معنى ومغزى. لم تكن ألاعيبَ خفّة وحِيَلاً بارعة ففي معجزة شفاء المفلوج، انتهز المسيح الفرصة للتكلُّم عن الخطيَّة وكيف يُمكن أن تُغفَر. وقد قدَّم برهاناً واضحاً على قدرته، وأشار إلى سلطانه في الشفاء كدليل على سلطانه الفريد في القضايا الأخلاقية.

لنلاحظ أن المعجزات لم تبرهن أن يسوع كان هو الله معنا. فكثيرون غيره في كلا العهدين القديم والجديد أجرَوا معجزات، بل أقام بعضهم موتى (إيليا في ١ ملوك ١٧:١٧ ـ ٢٣؛ أليشع في ٢ ملوك ٤:٨ ـ٣٧؛ بولس في أعمال ٢٠:٧ ـ ١٢). إلَّا أن المعجزات كانت ذات معنى ومغزى، على ما نرى من تعليق يوحنا بعد تحويل الماء خمراً في عرس قانا:

هذه بداية الآيات و فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده، فآمن به تلاميذه (يوحنا ٢:١١)

•كانت المعجزات آياتٍ بيّنات على قدرة المسيح وسلطانه. هذه الناحية مهمَّة خصوصاً في معجزات طرد الأرواح الشريرة التي أجراها المسيح، وهي ذات صلة بالموضوع الذي نظرنا فيه منذ قليل، أعني ملكوت الله. فقد أوضح المسيح أن هنالك قوّة أُخرى مناهضة للملكوت هي قوّة الشّر. ولا بدّ للإنسان أن يكون إمّا في ملكوت الله وإمّا في قبضة الشرّ. وما الأرواح الشريرة إلّا مظهر من مظاهر قوّة الشّر. فليست من نسج الخيال الجامح ولا هي توهُّمات يستطيع المثقَّف أن يرفضها بسهولة كما يرفض حكاية شيخ الميلاد (بابا نويل). وإنمّا كانت الأرواح الشريرة حقيقة واقعة آنذاك، وما تزال كذلك اليوم. وقد حدثت مُعجزات طُردت فيها هذه القوّات الشريرة من قبل قوّةٍ أقوى منها. ففي الفصل الرابع من إنجيل لوقا، مثلاً، نقرأ أن المسيح كان في المجمع بكفرناحوم. وكان في ذلك المجمع إنسان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يسكنه روح شرّير، فأمر المسيح الروح الشرّير بالخروج من ذلك الإنسان، فامتثل طائعاً. وهُنا أيضاً نلاحظ ردّة فعل الجمهور ذات الدلالة:

فوقعت دهشة على الجميع، وكانوا يخاطبون بعضهم بعضاً قائلين: ما هذه الكلمة؟ لأنه بسلطان وقوّة يأمر الأرواح النجسة فتخرج (لوقا ٤:٣٦).

ربّما نفهم اليوم لماذا يستصعب بعضُهم أن يؤمنوا بحصول المعجزات، إذ يبدو أن الاعتراضات تصبُّ في ثلاث خانات:

" •لم أر معجزةً قطّ"

" •ليست المعجزات إلَّا حوادث عاديَّة مبالغاً فيها على نحوٍ كامل"

" •لا يمكن أن تحدث معجزات" (بتوكيد جازم)

فلنتقدم إلى النظر في كلٍّ من هذه الاعتراضات.

لم أرَ معجزةً قطّ، وبالتالي لا أومن بمثل هذه الحوادث. "هذه الحجَّة تكتسب مقداراً من القوّة إذا كان في مقدوري أن أقول إنَّ أحطاً من أصدقائي أيضاً لم يرَ معجزةً قطّ. على أنَّه من الأرجح أن نجد أنَّنا إذا أكثرنا عدد الشهود الذين نطلب شهادتهم قد نُضطر بالأحرى إلى تعديل إنكارنا الأصليّ. ذلك لأنَّه يُحتمَل أن نعثر في دائرةٍ واسعة من الأصدقاء بالأقلِّ على واحدٍ رأى أو اختبر ما يُشبه المعجزة، مِمَّا يدعوه هو هكذا. فعلى سبيل المثل،أنا شخصيّاً لم أشهد حصول معجزة، إلَّا أن اثنين من أصدقائي شهدا ذلك، وكلتا الحادثتين معجزة شفاء. كانت إحداهما اختفاء سرطان على نحوٍ فجائي، أمَّا الثانية فمرضٌ أربك الأطباء وأعياهم، وأقعد صديقي المُبتلى به عن العمل أسابيع إلَّا أنَّه تلاشى حالاً بعد صلاةٍ رفعها صديقٌ ذهب ليزوره. فلو لم أكن مسيحيّاً مؤمنً، أو لم أكن أومن بالمعجزات، لكان يمكنني أن أقول واثقاً: "إنّي لم أر معجزةً قطّ "، ولكنْ ربّما كان علىّ تعديلُ قولي إن أنا ضمَّنت أصدقائي، بحيث ينبغي أن أقول، مثلاً: أنا لم أرَ قطُّ معجزة حقيقية، وكذلك أيضاً أصدقائي جميعاً. " فباستعمالي الصفة " حقيقية "، أستثني "معجزات " الشفاء.

وفي الواقع أن حوادث شفاء يتعذّر تعليلُها وحوادثَ شفاء استجابةً للصلوات قد حدثت، في ما يبدو، بشيءٍ من الانتظام على مرّ التاريخ. من ذلك مثلاً أن اللاهوتي فيليب ميلانكثون رُدَّت إليه الحياة وهو على عتبة الموت استجابةً لصلوات مارتن لوثر. وقد كتب لوثر إلى زوجته في ٢ تموز (يوليو) ١٥٤٠، يقول:

بالحقيقة، مات فيليب. إلّا أنه مثل لعازر، قد أُقيم من بين الأموات. إن الله، أبانا المُحِبّ، يسمع صلواتنا. أمرٌ نستطيع أن نفهمه، وإن كنّا غالباً ما لا نصدِّقه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وفي القرن الثامن عشر،حصلت مع جان وسلي حادثة شفاء أقرب إلى الغرابة. فإذ كان متّجهاً ليعظ في مكان دُعي إليه، أخذ حصانه يعرج. وقد دوَّن وسلي في مذكراته أنَّه ترجّل عن الحصان، ووضع يديه عليه، وصلّى لأجل شفائه، فإذا العرَج يتلاشى.

فهذه الحجَّة " لم أر معجزة قطّ، ولذا فالمعجزات لا تحدث " هي إذاً حجَّة ضعيفة لأنَّ في الوجود أشياء كثيرة لم يرها المرء، لكنَّها قويَّة لأنها لا تتضمَّن احتمالات (إذا) أو استدراكات (ولكن). إلَّا أنها تكون أقوى إذا كان في وسعي أن أقول إنّ أحداً من أصدقائي أيضاً لم يَرَ معجزةً قطّ. ولكن سؤالي لأصدقائي يوصلني سريعاً إلى شخص ما قد عاين معجزةً ما بكل تأكيد، ولا غرابة أن نتوقع أمراً كهذا. ذلك أن المعجزات أحداثٌ غير عاديَّة. ولذا، فمن المنتظر أن تفتِّش حواليك قليلاً حتى تجد واحدة. إنَّما يبدو أنها هناك فعلاً... إذا كنت تُنعِم النظر.

" *ليست المعجزات إلا حوادث عادية مبالغاً فيها."

هذه الحجّة الثانية تعني أن المسيح لم يُطعِم حقّاً خمسة آلاف نفس بخمسة أرغفة وسمكتين. فما حدث فعلاً هو أن الغلام المذكور في الخَبر أخرج زاده وقدّمه للمسيح ليرى هل ينفع في حلِّ المشكلة القائمة في إطعام ذلك الجمع الغفير. ثُّم لمّا رآه الآخرون يفعل ذلك خجلوا وحذوا حذوه، فأخرج كلُّ واحدٍ منهم زاده وقد كانوا مخبّئين الزاد خشية أن يُطلب إليهم إشراك الآخرين في تناوله وألا يكون لديهم ما يكفي للتوزيع. وعليه، فالمسيح أيضاً لم يمشِ حقاً على وجه الماء. فما حدث فعلاً هو أنه كان يمشي على طولَ الشاطئ. ولكن في وسط العاصفة وبين الرذاذ المتطاير، ووسطَ صفير الرياح، ظنّ الذين في السفينة أنَّه كان ماشياً على الماء.

أعتقد أن صواب التفكير يقضي بالإشارة إلى أنَّ البيِّنة الوحيدة التي عندنا على هاتين الحادثتين (إشباع الخمسة الآلاف وسير المسيح على الماء) هي بيِّنة الكتاب المقدّس. فما من غموضٍ يعتري أيَّ هذين الخبرين، إذ يوصف المسيح وهو يُطعم خمسة آلاف نفس بخمسة أرغفة وسمكتين، كما يوصف وهو ماشٍ من الشاطئ على الماء لينضمّ إلى تلاميذه في القارب الصغير الذي كان وسط البحيرة (راجع مرقس ٦:٤٥- ٥٣). فالآن، بينما يستطيع كل مَن يقرأ هاتين الحادثتين أن يقول أنَّه لا يصدقهما، ينبغي لنا إذا رفضناهما أن نحذَر خطرا محقّقاً.

ما لا يجوز لنا أن نفعله هو أن نلفّق شيئاً نضعه محلَّ الأشياء التي نرفضها. قِسْ على هذا ما يفعله أولئك الشكّاكون الذين يجدون أنهم لا يستطيعون أن يصدِّقوا ما جاء في الكتاب المقدّس عن محاكمة المسيح وموته وقيامته. فإنَّهم يتولَّون إخبارنا بدلاً من ذلك "بما حدث فعلاً": أنَّ قيافا كان بالحقيقة يحاول إنقاذ المسيح، وأن كل ما جرى كان بالحقيقة جزءاً من

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

خطَّة أعدّها حزب الغيارى، وأنَّ يوسف الرامي بالحقيقة أنزل المسيح عن الصليب حيّاً ... الخ. وليس في مثل هذه التصوَّرات أيُّ ضرر ما دامت تؤخذ على حقيقتها، أعني كونها مجرد تخيُّلات وأوهام. إلا أنَّ أي إنسان يأخذ هذه التصوُّرات على محمل الجدّ يكون أكثر سذاجةً من أبسط شخصٍ يثق بنصّ الكتاب المقدّس ثقةً كليَّة) كايرد G. B. Caird في "لغة الكتاب المقدّس والتصوير البياني فيه.("

لك أن تصدِّق ما يرويه الكتاب المقدّس، ولك ألَّا تصدَّقه. ولكنَّ الإخلاص الصريح يقضي بعدم الزعم أنَّ ما يقوله الكتاب هو غير ما يفهمه الجميع بكل بساطة.

"لا يمكن أن تحدث معجزات". إنَّ التوكيد الجازم في هذه الحجَّة الثالثة يفيد أن الناس لا يقدرون أن يسيروا على الماء، ولذلك فهم لا يسيرون على الماء. فالسير على الماء مناقض لقوانين الفيزياء. ونحن نعرف جيّداً مثل هذه القوانين، والاختبار يُثبت القوانين. إلَّا أن المسيحي المؤمن قد يرد على مثل هذه الحجة بالقول: إنّما القوانين مجّرد استنتاجٍ من الملاحظة. فإن لاحظت شخصاً ما يسير على الماء، يجب أن تتضمّن صياغتي للقانون هذه الملاحظة بطريقة من الطرائق. أو قد يُجيب المسيحي المؤمن قائلاً: أجل، هنالك قوانين تتحكّم بشؤون الطبيعة، وهي ليست قوانين عَرَضيَّة. فإنَّ الله ضمَّن هذه القوانين في الطبيعة عندما خلق العالم. وليس بالتأكيد ما يُدهش إذا كان الله يتسامى عن هذه القوانين من حين إلى حين. كما أننا قد نلاحظ أيضاً أن الكون ليس هو ذلك الشيء الملتزم للقوانين على النحو الذي قد يتصوّره بعضنا. فعلماء الفيزياء يعرفون أننا عندما نبدأ في سبر أغوار المقوّمات الأساسية للكون تنحلّ، على ما يبدو، جميع القوانين المنطقية والحسنة والمرتّبة وتتحول إلى أسئلة عن الاحتمال، أي عمّا قد يحدث ويُحتمَل أنه سيحدث، وليس عمّا يجب أن يحدث.

آراء متحوِّلة في الكون

جدير بنا فعلاً أن نتوقّف قليلاً كي نلفت النظر إلى سلسلة مهمَّة من التغييرات التي طرأت على تفكيرنا في ما يتعلّق بكوننا هذا. فقبل القرن السابع عشر كان العالم أشبه شيء بحالة فوضى عارمة

...قد تتداخل فيه عند أية لحظة معجزات إلهية، ملائكة الله ـ وحتى السَّحرَة والشياطين...

عالمٌ حلَّ محلَّه عالمُ قوانين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

...فيه تعاقُبٌ منتظِم للسبب والنتيجة. حتّى إذا شارف القرن الثامن عشر نهايته كانت الصورة هذه قد أصبحت عالميَّة... فإذا قوانين العلوم كشريعة مادي وفارس التي لا تتغيَّر، وإذا بنا أمام نظامٍ صلب مطلق يتحكَّم بما يتعلّق بكيان الإنسان الكلّي، على الصعيد المادّي والعقلي والخُلقي. في عالم كهذا لم يكن مكان للحريَّة ولا للمسؤولية ولا لمعايير الخير والشر) ...الأستاذ رايفن G.E. Raven في خطاب ألقاه عام ١٩٥٣ على جماعة من العلماء.(

إلَّا أن هذه السلسلة شهدت مرحلةً ثالثة. فعوضاً عن القواعد المطلقة تُصاغ في ما يتعلّق بالأشياء، وهي قواعد تجاهلت حتّى أولئك الذين قدّروا الأشياء وقاسوها، كشف لنا آينشتاين عن عالم يتميّز بالنسبيَّة. أن يُفسَّر كل شيء ويُفهم من وجهة نظر المراقِب أو المُلاحظ. ولم تعُد الأطوال والأوزان والسرعات هي تلك الأمور المطلقة التي كُنّا نعدُّها هكذا، بل كانت نسبيَّةً بالنسبة إلينا.

والجدير ذكرُه هنا أن يكون علم اللغات قد سار على غير هُدى خاف العلم في فترته الآليَّة، محاولاً التخلّي عن الإنسان. هذا الإنسان الذي هو صاحب اللغة منذ نشأتها. فإن نوام شومسكي(Noam Chomsky) ، خبير في علم اللغات في العصر الحديث، قد حكم بالتخلّي عن المعاني أو علم دلالات الألفاظ من ساحة الدراسات اللغوية، لكون هذا الفرع ليس جزءاً من هذه الدراسات. هذه المرحلة أيضاً عبرت وولَّت. فها هو الإنسان قد أعيد إلى مركزه من جديد باعتباره عنصراً أساسياً في عالم الدراسات العلميَّة.

وقد جاء بعد آينشتاين في مجال العلوم آخرون، منهم هاينسبرغ (Heisenberg) الذي طلع بمبدأ عُرف باللا حتميَّة. ومؤدّى هذا المبدأ أنَّ انعدام اليقين داخلٌ في صُلب كلِّ مراقبة للعمليّات الأساسية، وذلك لأننا بالتحديد لا نستطيع أن نعرف شيئاً عن أيَّة حادثة دون مراقبتها، ولأن مراقبتنا لا تتدخَّل حالاً في تلك الحادثة. وها نحن نقتبس مرَّة أُخرى مِمَّا قاله رايفِن:

إن الاعتراف بمبدأ عنصر التغيّر في نظام الطبيعة، من شأنه أن يبدِّل المفهوم القديم- الذي يأخذ بالتسلسل الحتمي للأمور- ويجعله خاضعاً لعملية التغيّر والإبداع اللذان يحدثان فعلاً.

وعليه يستطيع المسيحي المؤمن أن يُجيب من يُنكر المعجزات قائلاً: عليك بإبداء قليلٍ من التواضع بعد. أنت تشير إلى قوانين الفيزياء. حسناً، إنّ الله قد وضع في صلب الطبيعة. وتتحدّث عمّا يمكن أن يحدث وعمّا لا يمكن. فهل نعرف حقّاً ما هو ممكن وما هو غير ممكن؟ أو نحن في وضعٍ يمكّننا من أن نقول لله ماذا يجوز له أن يفعل وماذا لا يجوز؟ وتقول أنك لم تَرَ قطّ معجزةً تحدث. فهنالك أُمور كثيرة لم ترَها، وربَّما لن يكون لك حتّى مجرّدُ الرجاء برؤيتها دون إيمان، ودون خضوعٍ للهِ الذي وحدَه يُضفي المعنى على العالم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الذي يراه. ثقْ إذاً في يسوع المسيح الذي يُعلن لنا الله والذي برهن مرّةً على قدرة الله إذ عاش بيننا.

إن سيرة يسوع تبدأ بمعجزةٍ هي ولادته من العذراء، وتبلغ ذروتها في معجزة هي قيامته، والمعجزات بين هذه وتلك هي لافتاتٌ تجابه كل عاقل قائلةً: "قف. انظر. فكِّر. من هو هذا الإنسان؟"

للاستعانة على الإجابة عن هذا السؤال، نتوجّه الآن إلى النظر في القضيّة الأساسية في المسيحية، وهي ليست حياة المسيح ولا معجزاته، بل موته .

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

انتصار أم هزيمة

علّق أحد الهندوس في كالكوتا على جدران بيته عبارات رئيسيّة من أديان العالم – من البوذية، العبارة الرمزيَّة: "تحيَّةً للجوهرة في زهرة اللوطس"؛ ومن الإسلام، الدُّعاء: "باسم الله الرحمن الرحيم"؛ ومن الكونفوشيوسيّة، المثَل: "الحكيم يعتمد على النشاط الهادئ دون جلبة"؛ ومن الهندوسيّة، العبارة "ذلك هو أنت."

وكان بين العبارات آيةٌ من الكتاب المقدّس واردة في العهد القديم والعهد الجديد، اعتُبِرت بطريقةٍ من الطرائق راسخةً في صميم الإيمان المسيحي، ألا وهي تلك العبارة التي قالها المسيح وهو على الصليب:

"إلهي إلهي، لماذا تركتني؟" (مرقس ١٥ : ٣٤).

من شأن المسيحية أن تؤيّد وجهة نظر ذلك الهندوسي. فهنا، في موت المسيح،يكمن سرُّ فهم المسيحيّة.

ومن الأُمور المهمَّة أنَّ الأناجيل الأربعة تشدّد كثيراً لا على سيرة المسيح ولا على أمثاله، ولا على معجزاته أيضاً، بل على آخر مرحلة من حياته على الأرض.

فيوحنّا مثلاً يخصِّص نحو ٤٥ بالمائة من إنجيله لأحداث الأسبوع الأخير من حياة المسيح، و١٨ بالمائة لخبر موت المسيح وقيامته.

الوقائع

إن الوقائع الأساسيَّة واضحة بكل دقائقها. فخلال السنين الثلاث أو نحوها من التعليم الجهاري، تنامى عداء القادة الدينيين للمسيح. وقُبيل الاحتفال بعيد الفصح السنوي أُلقي القبض على المسيح من قبل السلطات اليهودية ووجّهت إليه تهمة التجديف. وقد سلّمته السلطات اليهودية للسلطات الرومانية، لكنَّه اتُّهِم هذه المرة بالتحريض على الثورة والعصيان ولا سيمّا بالكلام ضدَّ القيصر. وحكم عليه بيلاطس، الوالي الروماني، بالموت. فصُلِب، وبعد ست ساعات مضت وهو معلّق على الصليب، مات.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولأنَّ السبت، يوم الراحة المقدّس عند اليهود، كان يقترب، أُنزِل جسد المسيح عن الصليب ووُضِع في قبر محفور في الصخر. ولم يسع الوقت لمسح الجسد، كما جرت العادة، بِما يُعَدُّ من دهون وطيوب وعطور. فكان على أتباع المسيح، ولا سيمّا منهم النسوة اللواتي من شأنهنّ أن يتولَّين دهن الجسد، أن يكتفوا فقط بمراقبة القبر الذي ووري فيه الجسد مراقبةً دقيقة، كي يعودوا إلى إتمام ذلك الواجب حالما ينتهي السبت.

وقد سُدَّ بابُ القبر بحجر دُحرِج عليه بالطريقة المألوفة يوم ذاك. وأقامت السلطات اليهودية حراسةً على القبر مشدَّدةٍ، إذ علمت بوعد المسيح أنَّه سيعود إلى الحياة بعد موته. ولكنْ على الرغم من جميع هذه الاحتياطات، لمّا وصلت النسوة إلى القبر فجرَ يوم الأحد، حاملاتٍ الطيوبَ والعطور والدهون، وجدن القبر فارغاً.

وعلى مدى أربعين يوماً بعد ذلك، شاهد المسيحَ أشخاصٌ عديدون مختلفون، على غير انتظار مِن قِبَلهم. (يورد بولس لائحة معِّبرة تشملهم جميعاً، وذلك في ١ كورنثوس ١٥:٣-٨). وفي ما نعلم، لم يظهر المسيح بعد قيامته إلاَّ لمؤمنين. ثُّم توقفت هذه الظهورات حالاً بعد أربعين يوماً. وبعض أتباع المسيح رأوه فعلاً وهو يؤُخذ عنهم إذ... ارتفع وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعيُنهم (أعمال الرسل ١:٩).

الدَّعوى على المسيح

وُلد يسوع في بيت لحم، في جنوب البلد. وسمع الملك هيرودس بخبر "ملك اليهود" هذا من مجوس (أو حكماء) جاؤوا من الشرق، ربما من بلاد الفرس (حيث تقع إيران حالياً) أو من بلاد العرب. وإذ خشي هيرودس قيام ملك ينافسه، أرسل جنوداً إلى بيت لحم فقتلوا الأطفال الذكور جميعاً، لكنْ بعدما كان يوسف ومريم أُنذرا في حُلم فهربا بطفلهما إلى مصر. وفي آخر الأمر تسنّى لهما أن يعودا إلى الناصرة، وهناك تربّى يسوع.

اشتهر تاريخ اليهود بظهورٍ منتظمٍ لأنبياءَ يرسلهم الله فيتكلَّمون بما يوحي إليهم من كلام، ولم يندر أن يتكلَّموا عن أحداثِ المستقبل. من هؤلاء إيليا وأليشع اللذان سبق لنا أن صادفنا اسميهما. ومنهم أشعياء وهوشع مُعاصِرهُ. وقد كان آخِرَهم ملاخي. فبعد ملاخي حدث انقطاعٌ مشؤوم في تَسلسُل الأنبياء، فكانت فترة صمت دامت أكثر من أربع مئة سنة. حتّى دوَّى صوتُ يوحنا المعمدان قاطعاً الصمت، معلناً قدوم المسيح: يأتي بعدي من هو أقوى منّي، الذي لست أهلاً أن أنحني وأحلّ سيور حذائه. أنا عمّدتكم بالماء وأما هو فسيعمّدكم بالروح القدس (مرقس ١: ٧ و٨).

وقد عرَّف يوحنا نفسه من خلال نبوّة قديمة، فكان– كما قال:

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

صوتَ صارخٍ في البريَّة: أعدّوا طريق الربّ، اصنعوا سبله مستقيمة (متى ٣:٣؛ راجع أيضاً أشعياء ٤٠:٣). فيوحنا كان الصوت؛ ويسوعُ كان الربّ.

ويبدو أن الشعب فهموا سريعاً رسالة يوحنا المعمدان. فقريباً سيظهر شخصٌ يكون على الأقلّ منقذاً. ولعلَّه شخص يستطيع أن يحرّر الشعب اليهودي من نير الرومان الغزاة. ألم يبعث الله في الماضي رجالاً من هذا النوع؟... أو يكون القادمُ آنذاك هو المسيّا الذي طال انتظاره، أي المسيح الذي أقامه الله ومسحه ليكون منقذاً لشعبه؟

سبق أن رأينا في الفصل الثاني أن يسوع دُعي "المسيح" وتفسيره "الممسوح"، كما رأينا أيضاً أن الملوك كانوا يُمسَحون مَثَلُهم مثلُ الأنبياء والكهنة. فإذا كان يسوع هو المسيح، فهل هو المعيَّن من الله والممسوح ملكاً أو نبيّاً أو كاهناً؟

المسيح المُنقذ

يتحدَّث العهد القديم عن إقامة الله لمُنقِذين يُخلِّصون شعبه. وخير مثلٍ على هذا سفر القضاة، حيث نشهد سلسلة طويلة من المُنقِذين أمثال عُثنيئيل وإهود، ودبورة النبيَّة، وجدعون وشمشون.

ونجد في نبوءة دانيال (٢٤:٩- ٢٧) الإشارات الوحيدة في العهد القديم إلى مسيحٍ مُخلِّصٍ يأتي في المستقبل ولا يُذكَر بالاسم. فانطلاقاً من هذه النبوّة، ومن إدراكٍ لدور الله في تاريخ الأمَّة بإرسال مُنقِذ، عمَّ عند الشعب اليهودي رجاءٌ مسيحانيٌّ قويٌّ.

المخلَّص: العبد المتألِّم

على أنّ في العهد القديم اتّجاهاً ثانياً من التعليم النبوي يُركِّز على عبدٍ للربّ متألِّم. وكان أشعياء، بصورة رئيسيَّة، هو الذي أفاض في الحديث عن هذا الغرض. ففي سفر أشعياء أربعة مقاطع تُدعى أحياناً أناشيد العبد (٤٢: ١- ٤؛ ٤٩: ١- ٦؛ ٥٠: ٤- ٩؛ ٥٢: ١٣- ٥٣: ١٢). إلا أنَّ في السفر إشارات أُخرى إلى هذا العبد بحيث يبلغ مجموع الإلماعات إلى العبد سبع عشرة (من أشعياء ٤١: ٨ إلى أشعياء٥٣:١٢). ويتميز النشيد الرابع على وجه الخصوص بتصويره لا مسيحاً ظافراً بل عبداً متألِّماً.

فمن كان هذا العبد المتألِّم؟ يوضح الأُستاذ كايرد(G. B. Caird) ، في "لغة الكتاب المقدَّس والتصوير البيانيّ فيه"، حقيقة الأمر ببراعة إذ يقول:

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أكان مقدَّراً أن يكون العبد هو الأمّة كلها أو مجرَّد بقيّةً، أن يكون كثيرين أو قليلين أو واحداً فقط؟ إنَّ السبب الذي حدا بالدارسين المُحدَثين أن يناقشوا هذه المسألة بلا انقطاع هو أنَّ النبيَّ نفسه لم يكن يعرف الجواب الصحيح.

فكأنَّما هو قد نشر إعلاناً عنوانه الرئيسي "مطلوب: عبدٌ للربّ" وفيه تحديد لبنود الوظيفة. ولا شك أن النبيَّ كان يعلم أنَّ عدَّة مشاهير، كموسى وإرميا مثلاً، قد جلسوا أمامه لوضع ملامحهم في الصورة المركّبة التي كان يرسمها. ولكنْ ما لم يكن ممكناً له أن يعرفه هو أنَّ مرشحاً واحداً فقط سيشغل في آخر الأمر هذه الوظيفة.

فقد كان مقدَّراً أن يكون العبدَ المتألِّم هو يسوعُ المسيح.

إذاً كان في العهد القديم تيّاران تعليميّان يَعِد كلٌّ منهما بمجيء مخلِّص، إلَّا أن أحدهما يُقدِّم مسيحاً ملكاً الآخر عبداً متألِّماً. ولمّا كان الشعب اليهودي واقعاً تحت ظلم الطغيان السياسيّ، فقد تمسَّك بفكرة كون المسيح ملكاً وحسب.

غير أن المسيح لم يشجِّع معاصريه اليهود على التشبُّث بهذه الفكرة المغلوطة. بل إنَّه في الواقع حذَّر منها أتباعه مراراً وتكراراً، مناشداً إيّاهم أن يخفِّفوا من غلواء التشديد على كونه المسيحَ الملكَ وحسْب. فبينما كان هذا صحيحاً من حيث التطبيق؛ إذ كان المسيح هو المخلِّص الإلهيّ، غير أن التلاميذ- شأنهم شأن جمهور الشعب- بدا أنَّهم لا يستطيعون أن يفكّروا في الإنقاذ إلَّا بمعنى التحرير السياسيّ. حتّى إنَّهم كانوا، بعد موت المسيح وقيامته، ما يزالون يفكِّرون هذا التفكير، إذ سألوه حينذاك قائلين:

"يا ربّ، هل في هذا الوقت تردُّ المُلك إلى إسرائيل؟" (أعمال:١:٦).

وبالطبع لم يفعل المسيح ذلك. فهو قد أتى لغرضٍ آخر مختلف.

إلا أنَّه كان من الواضح جليّاً أنَّ إخفاء المسيح لقوّته الفريدة لم يكن مُمكِناً. فقد شفى كثيرين... ومَن ذا كان يستطيع مَنْعَ الذين شفاهم من التحدُّث عن شفائهم؟ وقد أقام أمواتاً ... ومَن ذا كان يستطيع وقف الشهود عن إذاعة الخبر؟ وهو نهى عن ذلك غير مرّة (راجع مثلاً مرقس ٥: ٤٣)، غير أنَّ أخبار قوَّته انتشرت مع ذلك، حتّى إنّ الملك هيرودس أيضاً سمع عنه (راجع مرقس ٦: ١٤). وهكذا لم يكن بُدٌّ من أن يُتعَبر المسيحُ خطراً يتهدَّد الرؤساء الدينيّين ولم تكُن حياتُهم لترقى إلى مستوى ما اتّصفت به حياة المسيح من وصراحة واستقامة، كما أعوزتهم القوّة في الشؤون الروحيَّة. كذلك أيضاً اعتُبِر المسيح خطراً يتهدّد الرؤساء المدنيين، إذ رأوا فيه ما يعكّر صفو الاستقرار السياسيّ.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولكنَّ المسيح رفض دائماً هذا الدور السياسيّ. لنأخذ مثلاً الخبَر الوارد في يوحنا ٦. فجميع كتبَةِ الأناجيل الأربعة يدوّنون خبر هذه العجيبة المختصَّة بإشباع الخمسة الآلاف. إذا، كان طبيعيّاً أن يعترف الناس بها، ولم يكن بدٌّ من أن يتباحثوا في مسألة هويّة المسيح. وهنا أيضاً كان حتمياً أن تتّجه أفكارهم إلى النبوءات المتعلّقة بمجيء مخلِّص. وبعد، ألا يتضمَّن العهد القديم نبوّةً معروفةً جداً عن نبيٍّ مثل موسى يُرسِله الله (تثنية ١٨: ١٥- ١٩)؟ وموسى أعطى الشعب بأُعجوبةٍ طعاماً في أراضي سيناء الصحراوية. أفلم يكن المسيحُ هو النبيَّ المماثل لموسى؟ لابدَُّ أن يكون ذلك.

إنَّ هذا هو بالحقيقة النبيُّ الآتي إلى العالم (يوحنا ٦: ١٤).

وكان قصدهم المباشر أن يجعلوا يسوع ملكاً، وهو علم بذلك:

وأما يسوع، فإذا علم أنَّهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده(يوحنا ٦:١٥).

لقد رفض المسيح أن يؤدي دوراً سياسيّاً. فهو قد جاء بوصفه المخلِّص المتألِّم كي يقهر الشيطان، ولم يأتِ مُنقِذا سياسيّاً كي يدحر القيصر.

محاكمة المسيح

لم يُحاكِم اليهودُ المسيح رسميّاً قطّ. ولا شكَّ أنَّهم كانوا يقصدون كُلَّ حين أن يضمنوا تحميل الرومان المسؤوليةَ عن موته. غير أنَّهم أجرَوا له استجواباً غير رسميّ.

وكان رؤساء الكهنة والمجمعُ كلُّه يطلبون شهادةً على يسوع ليقتلوه، فلم يجدوا. لأنَّ كثيرين شهدوا عليه زوراً ولم تتّفق شهاداتهم (مرقس ١٤: ٥٥ و٥٦).

السؤال

أخيراً أعيا الكهنة من جرّاء هذه المحاولة غير الوافية بالْمرُاد، فسألوا المسيح صراحةً:

أأنت المسيحُ ابنُ المبارَك؟ (مرقس ١٤: ٦١).

وكان هذا السؤال مهمّاً للغاية.

فمن جهةٍ واحدة، واجه هذا السؤالُ يسوعَ مباشرةً بمسألة كونه المسيحَ فعلاً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ومن جهةٍ ثانية، استخدم رئيسُ الكهنة أقوى أنواع الخطاب في طرحه السؤال، بحيث كان واجبًا على المسيح أن يجيب بكلّ وضوح.

أستحلفك بالله الحيّ... (متى ٢٦: ٦٣).

ومن جهةٍ ثالثة، كان السؤال مهمّاً لأنَّه أفسح للمسيح في المجال كي يوضح للّاهوتيين المتفلسفين حقيقة هويّته وما يعنيه بالتعبير "المسيح."

جواب المسيح

أنا هو... وسوف تُبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوّة وآتياً في سحاب السماء (مرقس ١٤: ٦٢). كان أوّل شيء فعله يسوع في جوابه هذا هو أنَّه أوضح بجلاءٍ دعوى كونِه المسيح. ومن ثَمَّ فسَّر ذلك ليس بالنسبة إلى الماضي (الولادة العذراوية، التعليم، العجائب) بل بالإشارة إلى المستقبل، وبالتحديد إلى حادثةٍ مستقبليَّة تنبّأ عنها دانيال النبيّ (راجع دانيال ٧: ١٣و ١٤).

يبدو لي أنَّ المسيح كان يؤكِّد هنا، على أوضح ما يكون، أنَّه حتّى تلك الأفكار التي كانت مُتداوَلة فيما يتعلّق بمسيحانيّته قد كانت مقصِّرةً عن تصوير الحقيقة. فهو لم يكن مسيحاً ملكاً بالمعنى السياسي. ولا كان أيضاً "ابن المبارَك" بمعنًى مجازيٍّ وحسب، أي رسولاً من عند الله. بل إنَّه يذهب إلى اعتبار نفسه أكثر من ذلك بكثير، على حدِّ ما توضِح نبوءة دانيال:

كنتُ أرى في رؤى الليل، وإذا مع سحب السماء مثلُ ابن إنسان، أتى وجاء إلى القديم الأيَّام فقرّبوه قدّامه. فأُعطيَ سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كلُّ الشعوب والأُمم والألسنة. سلطانه سلطانٌ أبدي ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقرض.

فإنَّ جواب المسيح، هذا يُلمع إلى نبوءة معروفةٍ مألوفة، كان ردّاً قاطعاً بالغ التأثير. وما من لاهوتيٍّ يستطيع أن يشكّ على نحوٍ معقول ما يريده المسيحُ من قوله. ولذا أدرك رئيس الكهنة في الحال أن يسوع كان يرمي إلى التصريح بأنَّه يعدو كونه مجرَّد إنسان، مُشيراً بصراحةٍ إلى لاهوته، مِمَّا اعتُبِر تجديفاً:

ما حاجتُنا بعد إلى شهود؟ قد سمعتم التجاديف. ما رأيكم؟ (مرقس ١٤: ٦٣ و ٦٤).

الحُكم

جاء في الردّ اجتماعيّاً، إذ حكم الجميع على المسيح أنَّه مستوجب الموت.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وبالطبع، ما كان الرومان ليعنيهم أمرُ سجينٍ متَّهم بمخالفةٍ لعقائدَ دينيّة يهوديَّة. وفي الواقع أنَّ بيلاطُس، لمَّا اقتاد اليهودُ إليه المسيحَ أوَّلاً، أجابهم جواباً متوقّعاً كُليّاً، إذ قال:

خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم (يوحنا ١٨: ٣١).

ففي أثناء المحاكمة الرسمية أمام بيلاطس، ممثِّل السلطة الرومانية، طُرِقت هذه الوتيرة، أعني اتِّهامَه بالتجديف، فكان الردُّ واضحاً تماماً: ليتَّهم اليهود بهذه المسألة. ثُمَّ لمّا اتُّهم بالتحريض على الثورة، ولم يؤيَّد هذا الاتِّهام بأيَّة بنيّةٍ وافية، قال بيلاطس لليهود أنَّه سيُطلقه.

وفي نهاية المطاف تبيَّن أنَّ الأمر بمجمله كان مؤامرةً مبطَّنةً لفَّقها اليهود كي يحصلوا على حُكم الموت الذي كانوا يبتغون:

"إن أطلقت هذا، فلست مُحِبّاً لقيصر. كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر."

فلمّا سمع بيلاطس هذا القول، أخرج يسوع وجلس على كرسيّ الولاية في موضعٍ يُقال له البلاط (يوحنا ١٩: ١٢و ١٣).

وهُنالك حكم بيلاطس على المسيح بالموت. فلو أنَّ القيصر سمع أنَّ رجلاً قال بأنَّه ملك فأُلقيَ القبض عليه وجرى اتهامه واستجوابه ومحاكمتُه ثُمَّ أُطلق سراحه، لكان على الوالي الروماني عندئذٍ أن يُفسِّر للقيصر أموراً كثيرة. وما تجاسرَ بيلاطس أن يخاطر هذه المخاطرة. ولذا حكم على يسوع بالموت.

المسيح على الصليب

صُلِب المسيح الساعةَ التاسعة صباحاً. ومن على الصليب تكلَّم سبع مرّات. فأوّلاً، طلب المغفرة لمسمِّريه. ثمَّ أوصى يوحنا، أحد تلاميذه، أن يعتني بمريم أُمِّه. وبعدئذٍ وقع وعداً لأحد الْمُجرِمَين المصلوبَين معه بأنَّه سيكون معه في الفردوس ذلكَ اليوم. ومن ثمَّ كانت الصرخة: "أنا عطشان"، وآخِرَ الكُلِّ كان الإعلانُ الظافر: "قد أُكمِل"، وبعدَه الصلاة التي درج اليهود على تلاوتها في آخر كلّ نهار: "يا أبتاه، في يديك أستودع روحي."

أما الصرخة المركزيَّة، وهي مفتاح الحادثة كلِّها، فقد كانت:

"إلهي، إلهي، لماذا تركتَني؟" (مرقس ١٥: ٣٤).

وهي تلك العبارة التي علَّقها الهندوسيُّ على جدار غرفته في كالكوتا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وهكذا نرى أنَّ متى ومرقس يدوّنان العبارة المركزية باللغة الآرامية كما استخدمها المسيح: إلوي، إلوي، لمَا شبقتَني؟

المزمور الثاني والعشرون

هذه العبارة المذكورة ترد في مستهلّ المزمور الثاني والعشرين، وقد كُتب قبل حادثة الصلب بألف سنة تقريباً. ورغم طول المدى الزمنيّ، يقدِّم هذا المزمور تعليقاً رائعاً على اختبار الصليب، وكأنَّما قد كُتب لهذه الحادثة بالذات.

يفهم اليهود المزمور الثاني والعشرين عادةً على أنَّه يُشير آلام الأُمَّة كمجموعة وإلى خلاصها النهائيّ، وإن كان بعضهم قد أشاروا أنَّ في ذهن الكاتب فتراتِ معاناة داود، على الأرجح لمّا كان شاول يُطارده. ولا شكّ أنَّه كان لهذا المزمور مناسبةٌ مباشرة لمّا نُظِم. غير أنَّ المسيحيين رأوا في المزمور أيضاً ما يُعتبَر إنباءً بآلام المسيح.

ينقسم المزمور إلى قسمين:

- الآيات ١- ٢١، وموضوعها الآلام غير المستحقَّة؛
- الآيات ٢٢- ٣١، و موضوعها الحمد لأجل النجاة.

ويبدو أنَّ في وسط المزمور تغييراً في النبرة من الأدنى إلى الأعلى. فإذا ما طُبِّق على حادثة الصلب/ فهو يمدّنا بتوكيد رائعٍ أنَّ يسوع قد أُنقِذ فعلاً من اختبار الوحشة الرهيب.

لأنّه لم يحتقر ولم يرذل مسكنة المسكين؛ ولم يحجب وجهه عنه، بل عند صراخه إليه استمع (الآية ٢٤).

بيد أنَّه ما يزال يواجهنا السؤال: ماذا كان السبب الكامن وراء ما يُدعى عادةً "صرخة الهجران" التي أطلقها المسيح؟ لماذا شعر المسيح أنَّ أباه قد تركه؟ إنَّ الجواب يمدّنا بواحدةٍ من الحقائق المركزية في المسيحيَّة، إذ إنَّ المسيح على الصليب قد جُعِل "خطيَّة لأجلنا" (٢ كورنثوس ٥: ٢١)، وقد "حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة" (١ بطرس ٢: ٢٤)، "وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا" (أشعياء ٥٣: ٥).

المزمور ٢٢: ١- ٢٤

إِلَهِي! إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي بَعِيداً عَنْ خَلاَصِي عَنْ كَلاَمِ زَفِيرِي؟ إِلَهِي فِي النَّهَارِ أَدْعُو فَلاَ تَسْتَجِيبُ. فِي اللَّيْلِ أَدْعُو فَلاَ هُدُوءَ لِي. وَأَنْتَ الْقُدُّوسُ الْجَالِسُ بَيْنَ تَسْبِيحَاتِ إِسْرَائِيلَ. عَلَيْكَ اتَّكَلَ آبَاؤُنَا. اتَّكَلُوا فَنَجَّيْتَهُمْ. إِلَيْكَ صَرَخُوا فَنَجُوا. عَلَيْكَ اتَّكَلُوا فَلَمْ يَخْزُوا. أَمَّا أَنَا فَدُودَةٌ لاَ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إِنْسَانٌ. عَارٌ عِنْدَ الْبَشَرِ وَمُحْتَقَرُ الشَّعْبِ. كُلُّ الَّذِينَ يَرُونَنِي يَسْتَهْزِئُونَ بِي. يَفْغَرُونَ الشِّفَاهَ وَيُنْغِضُونَ الرَّأْسَ قَائِلِينَ: [اتَّكَلَ عَلَى الرَّبِّ فَلْيُنَجِّهِ. لِيُنْقِذْهُ لأَنَّهُ سُرَّ بِهِ]. لأَنَّكَ أَنْتَ جَذَبْتَنِي مِنَ الْبَطْنِ. جَعَلْتَنِي مُطْمَئِنّاً عَلَى ثَدْيَيْ أُمِّي. عَلَيْكَ أُلْقِيتُ مِنَ الرَّحِمِ. مِنْ بَطْنِ أُمِّي أَنْتَ إِلَهِي. لاَ تَتَبَاعَدْ عَنِّي لأَنَّ الضِّيقَ قَرِيبٌ. لأَنَّهُ لاَ مُعِينَ. أَحَاطَتْ بِي ثِيرَانٌ كَثِيرَةٌ. أَقْوِيَاءُ بَاشَانَ اكْتَنَفَتْنِي. فَغَرُوا عَلَيَّ أَفْوَاهَهُمْ كَأَسَدٍ مُفْتَرِسٍ مُزَمْجِرٍ. كَالْمَاءِ انْسَكَبْتُ. انْفَصَلَتْ كُلُّ عِظَامِي. صَارَ قَلْبِي كَالشَّمْعِ. قَدْ ذَابَ فِي وَسَطِ أَمْعَائِي. يَبِسَتْ مِثْلَ شَقْفَةٍ قُوَّتِي وَلَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي وَإِلَى تُرَابِ الْمَوْتِ تَضَعُنِي. لأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِي كِلاَبٌ. جَمَاعَةٌ مِنَ الأَشْرَارِ اكْتَنَفَتْنِي. ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ. أُحْصِي كُلَّ عِظَامِي وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَيَتَفَرَّسُونَ فِيَّ. يَقْسِمُونَ ثِيَابِي بَيْنَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي يَقْتَرِعُونَ. أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَلاَ تَبْعُدْ. يَا قُوَّتِي أَسْرِعْ إِلَى نُصْرَتِي. أَنْقِذْ مِنَ السَّيْفِ نَفْسِي. مِنْ يَدِ الْكَلْبِ وَحِيدَتِي. خَلِّصْنِي مِنْ فَمِ الأَسَدِ وَمِنْ قُرُونِ بَقَرِ الْوَحْشِ اسْتَجِبْ لِي. أُخْبِرْ بِاسْمِكَ إِخْوَتِي. فِي وَسَطِ الْجَمَاعَةِ أُسَبِّحُكَ. يَا خَائِفِي الرَّبِّ سَبِّحُوهُ. مَجِّدُوهُ يَا مَعْشَرَ ذُرِّيَّةِ يَعْقُوبَ. وَاخْشُوهُ يَا زَرْعَ إِسْرَائِيلَ جَمِيعاً. لأَنَّهُ لَمْ يَحْتَقِرْ وَلَمْ يَرْذُلْ مَسْكَنَةَ الْمِسْكِينِ وَلَمْ يَحْجِبْ وَجْهَهُ عَنْهُ بَلْ عِنْدَ صُرَاخِهِ إِلَيْهِ اسْتَمَعَ.

ينبغي التشديد على أننا نضع يدنا هُنا على لُبّ المسيحيّة.

فليست المسيحية مجرَّد تحليل لمشكلات الإنسان تصحبه بعض الاقتراحات التي تبيّن لنا كيف يُمكن أن نحلَّ نحنُ تلك المشكلات. بل إن المسيحيّة في جوهرها هي ما قد فعله الله بخصوص مشكلاتنا.

وتثبت المسيحية أو تسقط بموجب أحداث تاريخيَّة معيّنة، ليس بما قاله المسيح وحسب، بل بما فعله أيضاً. هذا الأمر يوضحه بجلاءٍ بولسُ الرسول في رسالته الأولى إلى المؤمنين المسيحيين في مدينة كورنثوس، حيث يقول:

فإنّني سلّمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً: أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب، وإنَّه دُفن، وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب (١ كورنثوس ١٥: ٣ و٤).

عند هذه النقطة بالتحديد، وهي نقطة حاسمة أكثر من سواها، تتنازع أديان العالم. فاليهودية تُنكر أن يسوع هو المسيح وأنَّه مات وقام حيَّاً "حسب الكتب". والإسلام يذهب إلى أبعد من ذلك فيُنكر صلب المسيح. وفي ما يلي تلخيصٌ القضيَّة المتنازَع حولها، وذلك بقلم واحدٍ من عُلماء المسلمين:

على أن القرآن لا يعترف بأنَّه قد صُلب، بل يُفيد أنَّه رُفِع إلى السماء رأساً. هذه هي "الحقيقة" الواحدة التي لا يُمكن إنقاصُها والتي تفصل ما بين المسيحية والإسلام- حقيقةٌ مُثبتةٌ بالفعل من قِبَل العناية الإلهيَّة لمنع الخلط بين الديانتين. فسائر التعاليم الأُخرى،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

كمسألة طبيعة المسيح أو الثالوث مثلاً، يُمكن فهمُها ميتافيزيقيَّاً بطريقةٍ تؤلِّف بين المنظورَين. غير أنَّ مسألة موت المسيح تبقى هي "الحقيقة" التي تستعصي على أيِّ تفسيرٍ من شأنه أن يكون مشتركاً بين نظرة كلٍّ من المسيحية والإسلام إلى هذه الحادثة (سيّد حُسين نصر، في "الحياة والفكر الإسلاميَّان").

أعتقد أنَّ هذا التلخيص للقضيَّة مُنصفٌ للغاية. ولكنْ ربَّما كان من الواجب أن نُضيف، في سبيل إكمال الصورة، أنْ ليس جميع المسلمين ينظرون إلى حادثة الصليب نظرة واحدة. فإلى حدٍّ بعيد، تعتقد تعليم الأغلبيَّة النظرة التي عرضها نصر. غير أنَّ الأحمديَّة قديمة تذهب إلى أن المسيح أُغمي عليه فقط على الصليب وأفاق في القبر وأخيراً مات في كشمير.

ولكنَّ كِلا التفسيرين لصلب المسيح يُناقض تعليم المسيحيَّة الجوهريّ أنَّ المسيح مات لأجل خطايانا. ونتيجة هذه المناقضة يُحسِن التعبيرَ عنها كاتبٌ أحمديّ، هو محمَّد ظفر الله خان، إذ يقول:

ما إن يُثبت أنَّ المسيح لم يمت على الصليب، حتَّى ينتفي الموتُ المقترن باللعنة. وحمْلُ خطايا البشريَّة، والقيامةُ، والصعود، والكفّارة. فإذ ذاك ينهار بنيان علِم اللاهوت الكنسيّ بكامله (الإنقاذ من الصليب، ص ٨٩). وإنَّه لَعلى حقّ.

ينبغي أن نقول حالاً إنَّه لا سبيل إلى إزالة الفكرة القائلة بموت المسيح الكفّاري من الكتاب المقدّس بمجردَّ إسقاط بضع آياتٍ من هنا وهناك. فالعالَم الإسلاميُّ يُعلَّم أنَّ التوراة والإنجيل مُحرَّفان، ولكنْ لو صحَّ ذلك لكان علينا أن نقول في الحال إنَّ إزالة التحريف معناها، على أقرب وجه، خسارة الكتاب المقدّس بكامله، إذ إنَّ تعليم الكفّارة هذا متأصِّل فيه عميقاً جداً، ومفاده أنَّ خطاياي يمكن أن تُغفر لأنّ المسيح مات عنّي. هذا التعليم يُصوِّره في العهد القديم خبرُ الخروج من مصر والتضحيةُ بخروف الفصح. يصوِّره نظامُ الذبائح المعقَّد، من حيثُ يشير إلى بلوغ غاية إتمامه في موت المسيح. وهو مصوِّرٌ أيضاً في الخبر العجيب عن استبدال كبشٍ بابن إبراهيم ليُذبح فداءً له، وذلك على جبل الْمُرايّا بحسبما جاء في تكون ٢٢: ١-١٤. كما أنَّه مصوَّر كذلك في أشعياء ٥٣ ومزمور ٢٢، وفي تأسيس يوم الكفّارة على ما هو مذكور في لاويين ١٦.

فالواقع أن المسيحية تحمل الخطَّية على محمل الجدّ. فالخطيّة أكثر بكثير من تلك الأمور الخطأ التي أفعلها، إذ إنهَّا مبدأُ عامل، لكونها قوّةً في داخلي تسيطر عليَّ. ومن الأديان ما يوحي أنَّ كل ما نحتاج إليه هو التنوير: فما إن نعلم كيف ينبغي أن نتصرّف حتّى نكون قادرين على التصرُّف حسناً. إلا أن المسيحية تبتسم ابتسامةً واثقة وتقول: لن تستطيع.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وما أسرع ما تتبيَّن لنا حقيقة الخطيَّة وسلطتُها حالما نتنبَّه إلى مداها الواسع. ذلك أنّ دينونة الله لحياتي تشمل أفكاري ودوافعي ورغباتي كما تشمل أفعالي. فما من جهاز قضائي يستطيع أن يتعامل مع الأفكار، إذ لا يتناول إلَّا الأعمال الناتجة من الأفكار. أما الله فيُلاحظ الأفكار الخاطئة، ويراها جميعاً نابعةً من خطيَّةٍ كامنة، من قوةٍ عاملةٍ فينا.

فحريٌّ بنا أن نسائل أنفسنا:

هل المسيحية على صواب في تحليلها أو هي على خطأ؟ أفي وسعي حقّاً أن أفعل ما ينبغي لي أن أفعله؟ أوَ أستطيع أيضاً أن أفعل ما أُريد فعله؟

الخطيَّة حقيقة واقعة. وقليلون هم الذين يحاولون إنكار هذا الواقع. ويشدّد الصليب على ناحية ثانية من نواحي مسألة الخطيَّة، أعني بها برَّ الله. فكِلا العهدين القديم والجديد يتّفقان على أنَّ الله لا يُمكن أن يقول لنا ببساطة: "حسناً، انسوَا أمر خطاياكم". إذ من الواجب أن تُعالج الخطايا. وقد كان في فترة العهد القديم نظام ذبائح حيوانية. إلَّا أن هذه الذبائح لم تُعالج الخطايا نهائيّاً، بل ما فعلته هو أنَّها أشارت مقدَّماً إلى الوسيلة الحاسمة في معالجة الخطيَّة على يد المسيح. فقد مضت قرونٌ والخطيّة لا تُعالَج إلَّا رمزيّاً. وربَّما بدا أنّ الخطيَّة أفلتت من العقاب والبرّ لم يلقَ الثواب؛ حتّى جاء المسيح ليُعالج كلَّ الخطايا، خطايا الذين عاشوا في أيّام العهد القديم وخطايا الذين يأتون بعد المسيح. فليس من فرق، إذ الجميع أخطئوا، وقد عولجت الخطايا كلّها بالطريقة الواحدة عينها:

لأنّه لا فرق، إذ الجميع اخطئوا وأعوزهم مجدُ الله، متبرّرين مجّاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدّمه كفّارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإهمال الله، لإظهار برّه في الزمان الحاضر ليكون باراً ويبرّر مَنْ هو مِنَ الإيمان بيسوع (رومية ٣: ٢٢- ٢٦).

إلا أنَّ خطايا الماضي لم تُترك دون عقاب، إذ تعامل المسيح معها أيضاً على نحوٍ حاسم، كما تعامل مع خطايا الحاضر.

وطبعاً أنَّ صورة موت المسيح كذبيحة كفّارية ليست إلَّا واحدةً من الصور التي يستخدمها الكتابُ المقدس. فهنالك أيضاً استعارةُ العبوديَّةِ القويّةُ جداً. هذه الصورة البيانية قدَّمها لنا المسيح نفسُه إذ قال:

"لأنّ ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليُخدَم بل ليخدِم، وليبذل نفسه فديةً عن كثيرين" (مرقس ١٠: ٤٥).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وفكرة العبودية هذه قويَّةٌ على نحوٍ خاصّ في رسالة بولس إلى مؤمني مدينة روما، ربمَّا لأنَّ العبودية كانت مألوفةً لديهم جداً. (ومن المرجَّح أنَّ بعض المسيحيين في روما كانوا عبيداً). فيوضح بولس أنَّ المسيحيين المؤمنين في مدينة روما كانوا قبلاً "عبيداً للخطية" (راجع رومية ٦: ١٧ و٢٠)، ولكنَّ المسيح قد حرَّرهم. بل إن بطرس يوضح الصورة بأكثر جلاء، حيث يقول:

عالمين أنكم افتُديتم- لا بأشياء تفنى بفضَّة أو ذهب- من سيرتكم الباطلة التي تقلّدتموها من الآباء، بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دمِ المسيح (١ بطرس ١: ١٨و١٩).

ولنلاحظ هنا أن بطرس يدمج الصورتين معاً: الافتداء من عبوديَّةٍ للخطيَّة موروثة؛ والحريَّة بموت المسيح الذي يُشبَّه بحمل مقدَّمٍ ذبيحة.

هذا ويستخدم الكتاب المقدَّس صوراً أُخرى تهدف إلى توضيح معنى موت المسيح، أو على الأقلّ إلقاء بعض الضوء عليه.

وما لا يسمح لنا الكتاب المقدَّس بأن نفكِّر فيه هو أن صلب المسيح كان مجرَّد غلطةٍ رهيبة، أو إساءةً للعدل شنيعة، أو مهزلة قضائية مروِّعة. فليس الرومان مِن قتلوا المسيح ولا اليهود. بل إن المسيح هو مَن "وضع" حياته وقد أكَّد أنَّ له سلطاناً أن يفعل ذلك... وأن يستردَّ حياته أيضاً (راجع يوحنا ١٠: ١٧و١٨).

وفي أوّل عظةٍ مسيحية مدوَّنة نسمع بطرس أحد أتْباع المسيح الأوائل، يقول: هذا أخذتموه مسلّماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، وبأيدي آثمة صلبتموه وقتلتموه (أعمال ٢: ٢٣).

فلم يكن صلب المسيح حادثاً عرضيّاً بل إنَّه الحَدَث المركزي في التاريخ كلِّه. إنَّه المفتاح الذي لا بُدَّ منه لفهم المسيحية على حقيقتها، كما أنَّه المفتاح للأجوبة المسيحية عن الأسئلة الأساسية.

وكما أنَّ تلك الأسئلة الأساسية هي شخصيَّة في نهاية الأمر [مَن أنا؟ من أين جئت؟ إلى أين أنا ذاهب؟ ولماذا؟] فكذلك المفتاح بالتمام هو شخصيٌّ أيضاً. هذا المفتاح يُقدَّم لك إذ تبلغ آخِر هذا الفصل. ولن يلاءم المفتاح القفل إلَّا ما دام محتفظاً بشكله الأصلي. فإذا لويت المفتاح أو حنيته أو قطعت شيئاً منه، فإنَّه يصير غير ملائم، ويبقى الباب مقفلاً، وتظلُّ الحياة لُغزاً والموتُ رُعباً. أمّا إذا قبلت المفتاح كما يقدّمه الكتاب المقدّس فإنّك تجد أن الله يأتي إليك في المسيح وقد بذل حياته عوضاً عن حياتك: إذ إنَّ المسيح الإنسان الخالِص من أيَّة خطيَّة قد حُمِّل خطاياك وسُمِّر على الصليب. فالمسيح قد صُلب ومات ودفن لأجلك أنت.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

خُذ هذا مفتاحاً، فإذا الباب ينفتح على مصراعيه، وإذا المعنى الغنيُّ يُضفَى على قصَّة المسيح كلِّها، وعلى تاريخ العالم بالذات، وعلى الحياة، وعلى حياتك أنت شخصيّاً.

وإليك الآن مهمَّةً تؤديّها. اقرأ القصَّة بنفسك كما دونَّها لوقا في إنجيله، من الآية ٤٧ في الفصل ٢٢ إلى آخر إنجيل لوقا. وقد كتب لوقا كتاباً ثانياً، هو سفر الأعمال. فتابع قراءة الفصل الأول من الأعمال، ترّ أنَّ بطرس صار إنساناً جديداً. ثُّم اقرأ عظته المدوّنة في الفصل الثاني. ولاحظ إدراك الحقيقة كما حصل فجأةً من قِبَل أولئك القوم في أورشليم، إذ تبيّن لهم أنَّهم هُم مسؤولون عن صلب المسيح، لأنَّ خطاياهم قد أرسلته إلى الصليب، وإذا بهم يسألون: "ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة"؟ (أعمال ٢: ٣٧) .

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

المسيح قام

صُلِب المسيح الساعة التاسعة صباحاً، ومات الساعة الثالثة بعد الظهر، وأُنزل من على الصليب بسرعة ودُفن في قبرٍ قريب. ولمّا كان السبت، يوم الراحة عند اليهود، يبدأ الساعة السادسة مساءً فلم يكن الوقت يتّسع لإعداد الجسد للدفن كما جرت العادة.

مريم

فجرَ يوم الأحد ذهبت مجموعة من النساء إلى القبر حاملاتٍ طيوباً ودهوناً وعطوراً لدهن جسد المسيح. فوجدن القبر مفتوحاً وليس الجسد فيه. وبعدئذٍ حصلت سلسلة ظهوراتٍ من المسيح لأتباعه. وقد كان أوّل ظهور عند القبر بالذات بُعيَد اكتشاف النسوة القبر الفارغ. كانت مريم المجدليَّة، إحدى أتْباع المسيح، ما تزال واقفةً هناك خارج القبر تبكي، وهي لا تدري ماذا يمكن أن يكون قد حدث للجسد. لاحِظْ أنَّها لم تكن تتوقَّع أن يعود المسيح حيّاً على هذا النحو. ولذا استنتجت بشكل سريع: لا بُدَّ أن يكون أحد سرق الجسد، وهو عمل شنيع من قِبَل الزعماء الدينيين عند اليهود. إذ ذاك ظهر لها يسوع نفسُه وقال لها: يا امرأة، لماذا تبكين؟ مَن تطلبين؟ فظنت تلك أنَّه البستاني، فقالت له: يا سيِّد، إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعتَه وأنا آخذه.

قال لها يسوع: يا مريم. فالتفتت تلك وقالت له: ربَّوني (يوحنا ٢٠: ١٥ و١٦). (ومعنى قولها "ربَّوني" هو "معلِّمي" أو "سيِّدي").

توما

لم تكن مريم المجدلية بين أتباع المسيح وحدَها التي استصعبت أن تصدِّق أنَّه قام حيّاً من بين الأموات. فقصَّة توما هي قصَّة واحدٍ من رسل المسيح الإثني عشر، وهي المجموعة الصغيرة التي اختارها المسيح لتكون قريبة منه وبمعيَّته في عمل خدمته. وهنا أيضاً لم تكن القيامة متوقَّعة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ظهر المسيح للرسل مساءَ ذلك الأحد الأوّل، في عُليَّةٍ بأورشليم. ولسببٍ ما، لم يكن توما معهم. فلما أخبره الباقون أنَّهم رأوا المسيح وأنَّه قام حيّاً، أبى أن يصدِّق ذلك وقال:

إن لم أُبصر في يديه أثر المسامير وأضع إصبعي في إثر المسامير أضع يدي في جنبه لا أومن (يوحنا ٢٠: ٢٥).

وبعد أُسبوع فقط تحقّقت أُمنية توما. فإذا كان الرسل مجتمعين مرّةً أُخرى، وتوما معهم هذه المرّة، ظهر لهم المسيح مرّةً أُخرى وقال: سلامٌ لكم. وكانت هذه هي التحيَّة المعتادة عند اليهود. ثم التفت إلى توما مؤكّداً له بأنه علم بشكّه مع أنه لم يكن حاضراً عندما عبّر توما عن شكّه، وقال:

هات إصبعك إلى هنا، وأبصر يديَّ، وهات يدك وضعْها في جنبي؛ ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً (يوحنا ٢٠: ٢٧).

يبدو واضحاً من رواية يوحنا لهذه الحادثة أنَّ توما لم يكن بحاجة لأن يضع إصبعه في أثر المسامير في يدي المسيح ولا لأن يلمس الجرح الذي أحدثته في جنب المسيح بُعَيدَ موته طعنةُ الجنديّ الروماني.

فقد كانت ردّة فعل توما فوريَّة وبالغة الأهميَّة، إذ أجاب قائلاً: ربّي وإلهي.

وهذا اعتراف مذهل من قِبَل توما يعبّر عن استسلامه الكليّ، إذ تخلّى عن عدم إيمانه واعترف بالمسيح لا معلّماً أو رئيساً بشريّاً وحسب، بل بوصفه اللهَ أيضاً: "كيريوس" و"ثيوس"، أي الربّ والله.

ولكنْ قد يقول قائل: "إنَّما هذه شهادة توما وحده، فلعلَّه اندفع مصرّحاً بذلك تحت وطأة انفعالٍ عاطفيّ، فكان على خطأ فادح في جوابه المتسرّع مثلما سبق أن كان أيضاً على خطأ فادح في إنكاره ظهورَ المسيح لسائر الرسل، وإن كان هذا نقيض ذاك". ولكنَّ المسيح نفسَه يحسم الأمر على نحوٍ ولا أنسب، إذ يقول لتوما: لأنَّك رأيتني يا توما آمنت؛ طوبى للذين آمنوا ولم يروا (يوحنا ٢٠: ٢٩).

فلم يعمد المسيح إلى تقويم خطأ يُظَنُّ أنَّ توما قد ارتكبه. بل على العكس اعتبرَ اعتراف توما هذا فعلَ إيمان. فقول المسيح لتوما ".... آمنت". يُشكِّل طرف نقيضٍ لقول ملاكٍ أُرسل إلى يوحنا في رؤيا حصلت بعد سنين عديدة. فإنَّ ذلك الملاك اقتاد يوحنّا في اجتياز ذلك الاختبار المدهش، حتى إذا شارفت الرؤيا نهايتها أُخِذ يوحنا بروعة ما قد رأى، وإليك ما رواه هو نفسُه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وأنا يوحنا الذي كان ينظر ويسمع هذا. وحين سمعت ونظرت، خررت لأسجد أمام رجلي الملاك الذي كان يُريني هذا.

والآن لاحظ ردّ فعل الملاك مباشرةً: فقال لي: انظر، لا تفعل. لأنّي عبد معك ومع إخوتك الأنبياء، والذين يحفظون أقوال هذا الكتاب. أسجُد لله. (رؤيا ٢٢:٨ و ٩).

إنّه حيٌّ

تلك كانت ردّة فعل أتباع المسيح لمّا ظهر لهم حيَاً. وقد استمرت الظهورات أربعين يوماً، فكان إيمانهم يتقوّى عند كل ظهور جديد. إلى أن حلّ أخيراً يوم عودته إلى السماء.

وأخرجهم خارجاً إلى بيت عنيا، ورفع يديه وباركهم. وفيما هو يباركهم، انفرد عنهم وأُصعِد إلى السماء. فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم بفرحٍ عظيم (لوقا ٢٤: ٥٠ و٥١).

وهكذا تتكشف لنا ناحيتان مشوّقتان تتعلّقان بقيامة المسيح: قبرٌ فارغ ومسيحٌ حيّ. ولم يؤمن أتْباع المسيح لسبب القبر الفارغ وحسب، فقد علَّلت مريم ذلك بافتراض أنَّ أحداً قد سرق الجسد. وعلَّل زعماء اليهود الدينيّون الأمر بالقول إن أتباع يسوع قد سرقوا جسده. كذلك علَّل الأمرَ بعضُ الكتّاب المحدثين بقولهم إن مريم والآخرين ذهبوا إلى قبرٍ آخر غير قبر المسيح. غير أنَّ أتباع المسيح آمنوا لسبب مسيحٍ حيّ لا لسبب قبرٍ فارغ. فبطرس رآه. والرسل أيضاً رأوه. ونحو خمس مئة من أتباعه رأوه في مناسبة واحدة (راجع ١ كورنثوس ١٥: ٥- ٧). وما هو مهمٌّ جدّاً أن نلاحظه هو أنَّ المسيح ظهر لأُناسٍ لم يكونوا يتوقعون رؤيته. وهذه الظهورات لا يُعقَل أن تُفسَّر بكونها مجرَّد خداعٍ ذاتيّ: فهم كانوا راغبين في رؤيته حتّى اقنعوا أنفسهم أخيراً أنهم رأوه فعلاً غير أنَّهم لم يكونوا يتوقّعون أن يعود إليهم، ولكنه عاد حقّاً. وفي الواقع أنَّ يوحنّا علّق على وضع أتْباع المسيح حتّى حينما واجههم القبر الفارغ، قال:

لأنّهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب أنَّه ينبغي أن يقوم من الأموات (يوحنا ٢٠: ٩).

فإنَّ ما أقنعهم هو البيِّنة الدامغة الكامنة في مسيحٍ حيّ.

أهميَّة القيامة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إنَّ قيامة المسيح، بتوكيدها أنَّه حيٌّ وليس ميتاً، هي أمرٌ أساسيّ في المسيحيَّة، وليست شيئاً ثانويّاً يُمكن الاستغناء عنه. فمهمٌّ أن نعرف أنه حيٌّ اليوم كما هو مهمٌّ أن نعرف أنَّه مات لأجل خطايانا حسب الكتب. هذا الأمر يوضحه الرسول بولس في فصلٍ كامل من رسالته إلى المؤمنين بالمسيح في كورنثوس حيث يعالج موضوع القيامة:

*إن لم يكن المسيح قد قام، فباطلة كرازتنا، وباطلٌ أيضاً إيمانكم.

*إن لم يكن المسيح قد قام، فباطلٌ إيمانكم؛ أنتم بعد في خطاياكم.

*إذاً الذين رقدوا في المسيح، أيضاً هلكوا.

*إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاء في المسيح، فإننا أشقى جميع الناس (راجع ١ كورنثوس ١٥: ١٢- ١٩).

فالقيامة، كما بيّن بولس بكل وضوح، هي محكُّ كلِّ شيءٍ قاله المسيح، أو علَّم أو وعد به. ويفيدنا أوَّل إنجيل كُتب، أي مرقس، أنَّ المسيح علَّم أتباعه بأنه سيموت ومن ثمَّ يقوم حيّاً (راجع مرقس ٩: ٣١؛ ١٠: ٣٤)، غير أنَّهم لم يستوعبوا ذلك كما يقول مرقس:

وأمّا هم فلم يفهموا القول، وخافوا أن يسألوه (مرقس ٩: ٣٢).

إنمَّا هنا كان المحكّ الحاسم لصدق المسيح في كلّ ما قاله. كان آخرون قبل المسيح قد أجرّوا معجزات، وآخرون قدّموا تفسيراتٍ جديدة لسرّ الحياة. وفي الواقع أنَّ الديانات المعروفة بديانات الأسرار، والتي شاعت بعد المسيح بمئتي سنة أو أكثر، وربمّا كانت موجودةً زمنَ المسيح بصورةٍ مشابهة، تضمَّنت أيضاً أُسطورة تدور على مصرع أوزيريس وإعادة الحياة إليه بفضل زوجته التي جمعت أشلاء جسده المقطَّع الأوصال وبعثته حيّاً بسحرها. غير أن هذه الرواية شأنها شأن رواياتٍ أُخرى تتضمنَّها ديانات الأسرار، وُضِعت في غياهب الماضي السحيق وليس من شهودٍ يُقدَّمون لتأييدها. ولكنْ لمَّا كتب بولس رسالته إلى مؤمني كورنثوس كانت الأغلبيَّة الساحقة من شهوده الخمس مئة للقيامة ما تزال على قيد الحياة. فهاهنا كان الامتحان الأخير: أفي وسع المسيح أن يفي بوعده بأن يقوم بعد موته؟ يقول العهد الجديد " نعم" بكل توكيد. وهوذا بولس أيضاً يعلِّق على يقينيّة القيامة، فيقول عن المسيح: الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعيَّن ابنَ الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات (رومية ١:٣ و٤).

لم يُثَر أيُّ سؤال في ما يتعلّق بمجيء المسيح من نسل داود من الناحية البشرية، بل أُثير السؤال حول تصريح المسيح بأنه ذو طبيعة إلهيَّة: فما البرهان على أنَّه كان ابن الله؟ إن البرهان الذي يقدّمه بولس واضح لا لبس فيه، ألا وهو القيامة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

التبشير بالقيامة

لم تكن قيامة المسيح عقيدةً أُخذت بطريقةٍ ما عمّا يُسمَّى ديانات الأسرار وأُضيفت إلى المسيحية في ما بعد. بل يُحتمَل في الواقع أن يكون الأخذ قد حصل بالعكس فكانت المسيحية هي المصدر.

]هذا الأمر يشير إليه الأُستاذ بروس ميتزغر (Bruc Metzger) في بحثه الدقيق للعلاقة بين المسيحية وديانات الأسرار وذلك في كتابه "دراسات تاريخية وأدبية"، ص ١١؛ كما يتناول هذه المسألة أيضاً السير نورمان أندرسُن (Norman Anderson) في الفصل الثاني من كتابه "المسيحية وأديان العالم."[

بطرس

كانت القيامة نقطة مركزيَّة في كرازة أتباع المسيح الأولين ففي العظة الجريئة التي ألقاها بطرس في يوم الخمسين، بعد مُضيَّ عشرة أيام فقط على رجوع المسيح إلى السماء، قال بطرس للجمهور:

أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت، إذ لم يكن ممكناً أن يُمسك منه (أعمال ٢: ٢٤).

وبعد بضعة أيّام أشار بطرس إلى القيامة أيضاً:

ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات (أعمال ٣: ١٥).

وفي الفصل التالي بالذات من سفر الأعمال خَبُر إلقاء القبض على بطرس ويوحنا مِن قِبَل حرّاس الهيكل:... متضجّرين من تعليمهما الشعب وندائهما في يسوع بالقيامة من الأموات (أعمال ٤: ٢).

وفي اليوم التالي جيء بهما للمثول أمام رئيس الكهنة وسائر الزعماء الدينيين في أورشليم؛ ومرَّةً أُخرى أيضاً كانت القيامة محور حديثهما. فإذ سئلا كيف تمكنّا من شفاء رجُل مُقعَد، قالا:

إن كُنّا نُفحَص اليوم عن إحسانٍ إلى إنسان سقيم، بماذا شفي هذا، فليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنَّه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم، الذي أقامه الله من الأموات- بذلك وقف هذا أمامكم صحيحاً (أعمال ٤: ٩ و١٠).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ثمَّ هُدِّد الرسولان لكنَّهما أُطلِقا فعادا إلى باقي المسيحيين وأخبراهم بما حدث. وهو ذا كاتب سفر الأعمال يلخِّص النتيجة فيقول: بقوّةٍ عظيمة كان الرسل يؤدّون الشهادة بقيامة الربّ يسوع... (أعمال ٤: ٣٣).

حتّى إذا وصلنا إلى الفصل الخامس من سفر الأعمال نجد الرُسل يُلقَون في السجن ثمَّ يَفتح لهم أبوابَ السجن ملاكٌ من عند الربّ. وإذا بهم من جديدٍ في ديار الهيكل يتحدَّثون عن المسيح. ومرّةً أُخرى يُلقى عليهم القبض، ويسألُهم رئيس الكهنة، فإذا الشهادة عينُها تصدر عنهم من جديد:

إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلّقين إياه على خشبة. هذا رفعه الله بيمينه رئيساً ومخلّصاً... (أعمال ٥: ٣٠و٣١).

والقيامة هي جزء من الجواب المسيحي عن الأسئلة الأساسية التي نظرنا فيها في الفصل الأوّل.

نعم، إن الحياة غير مرضية وعديمة المعنى. والفوضى التي يتخبّط فيها العالم ليست غلطة الله، وكأنَّما قد أفلت من يده زمام السيطرة، بل هي غلطتنا نحن، إذ إنَّها عاقبة الخطيَّة المسيطرة على حياتنا. وليس من سبيل نستطيع به أن نغلب الخطيَّة بمجهودٍ عالميّ النطاق نصمِّم عليه جميعاً. فنحن نعرف من اختباراتنا القاسية كليّاً أنَّ "العادات القديمة أقوى من التصميمات التي نعقد العزم عليها ليلة رأس السنة"، أي أنّنا لسنا أحسن، رغم كلّ نيّة أن نتحسَّن. فما نحتاج إليه هو أن يأتيَنا أحد ويعالج الخطيَّة.

فالخطيَّة هي المشكلة. والمسيح هو الحلّ- لا المسيح القدوة ولا المسيح صانع المعجزات، ولا المسيح المعلِّم، بل المسيح مصلوباً ومائتاً ومدفوناً ومقاماً وصاعداً إلى السماء، المسيح حيّاً. المسيح الجالس الآن في مركز القوّة والقادر على إعتاقنا من عبوديّتنا للخطيَّة، وعلى إعطائنا حياةً جديدة، بحيث يمكننا أن نبدأ من جديد، مغفوراً ماضينا ومضموناً مستقبلنا.

واكتشاف المسيح على هذا النحو هو أعظم اكتشاف يمكن أن يتوقّعه أيٌّ منّا. فلولاه لكُنّا في وضعٍ يائسٍ فعلاً حيث تعوزنا الموارد لمعالجة المشكلات الحقيقية في الحياة، ولكانت هذه المشكلات تقهرنا وتدحرنا. فاهتداؤنا إلى المسيح يؤتينا في الحال راحةً عجيبة، إذ نكون قد وجدنا في آخِر الأمر الشخصَ الذي يستطيع تدبير كل شيء على أحسن ما يكون.

تعود بي الذاكرة إلى عدّة سنين خلت، حين كنت ذات مرة أُرافق ابنتي إلى المدرسة. فما إن دُرت بالمنعطف المفُضي إلى المدرسة، حتّى رأيت وإذا على الرصيف شخصان في وسط بِرْكة من الدماء. أوصلت ابنتي إلى المدرسة مسرعاً وأنا مُرتاع، واندفعت عائداً إلى الرصيف عبر الشارع. كان الرجل والمرأة المنطرحان هناك يعيشان معاً، كما علمت في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ما بعد، وقد تشاجرا ذلك الصباح شجاراً عنيفاً، فطارد الرجل المرأة على قارعة الطريق وطعنها بسكّين مطبخ في ظهرها طعنةً نفذت إلى قلبها. ثمَّ سحب السكين وحزَّ عنقه. ولم يكن قد مات إذ ذاك. فتعاونت مع رجُل آخر لعلنّا نستطيع شيئاً لإنقاذ حياة ٱلمُصابَين. وكان أحدُ المارّة قد ذهب ليّتصل هاتفياً بالإسعاف والشرطة. ولكن كان علينا أن نحاول القيام بشيءٍ ما.... تدليك القلب، التنفس الاصطناعي، وقف نزف الدم.... أي شيء. وقد تنفسنا الصعداء إذ رأينا بعد دقائق رجل شرطة وسيارة إسعاف وطبيباً. عندئذٍ أتيح لنا أن نضع المشكلة في أيدي أناسٍ قادرين على تدبيرها.

في ما سبق إيضاحٌ بسيط لما اختبرناه نحن المسيحيين المؤمنين: فقد تأتى لنا إدراكٌ مفاجئٌ، لكنه مترسخ باطراد، لهول المشكلة التي تواجهنا بها الحياة- وهي حقاً مربكة ومستعصية- وقد رافق ذلك وعيٌ متزايد بأننا لا نقوى على القيام بأي شيء لحلِّها. ولم نتنفس الصعداء إلا عندما دخل إلى المشهد ذلك الشخص القادر على الاهتمام بالأمر وتدبيره خير تدبير، أعني ربنا يسوع المسيح .

الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل هي هيئة إرسالية شغفها نشر كلمة الله في العالم العربي عبر الإنترنت وعبر وسائل إلكترونية أخرى. وتقوم بتوزيع الكتاب المقدس مجاناً للجالية العربية في أميركا الشمالية والقطر العربي وبلدان العالم. بالإضافة إلى مجموعة من الأقراص المضغوطة التي تحتوي على كتب روحية، عظات، تراتيل والكتاب المقدس.
لمزيد من المعلومات الرجاء الإتصال بنا.

 All rights reserved © 2008-2018

يحفظكم الله ويملأ حياتكم بالصحة والسعادة والسلام.

أسرة الخدمة العربية للكرزة بالإنجيل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com